أثر الأوقاف على الحياة الثقافية والاقتصادية في مكة والمدينة في العهد المملوكي

د . أحمد هاشم بدرشيني

أستاذ مساعد في جامعة طيبة بالمدينة المنورة

تمهيد

تحدثنا في العدد السابق عن الأوقاف وأثرها على الحياة الدينية والاجتماعية في العصر المملوكي ، ونتناول في هذا البحث أثر **الأوقاف على الحياة الثقافية والاقتصادية في مكة والمدينة في** ذلك العصر ؛ حتى تكتمل الصورة ، ويظهر الدور الكبير الذي كان للأوقاف على جميع الصعد وفي شتى الميادين .

أثر الأوقاف في ازدهار الحياة العلمية في المدينتين المقدستين :

شهدت بلاد الحجاز حركة علمية واسعة ، ويعود الفضل في ذلك إلى الحرمين الشريفين، فقد كان كل منهما مصدر إشعاع فكري لطلاب العلم والمعرفة ، والتقى فيهما العلماء والمفكرون في حلقات علمية رائدة ودائبة لاتنقطع نفعاً وانتفاعاً[1] ، وكان العلماء والطلاب يجدون في الأموال والمؤن وصدقات أهل الخير الأوقاف الدائمة والمرصودة التي كانت محبوسة عليهم ما يلبي مطالب حياتهم ويساعدهم على التفرغ لمهمتهم ، واجتذب الحرمان الشريفان الكثير من العلماء، لاسيما من عصفت بهم الفتن في بلادهم ، ولم يجدوا ملاذاً يؤويهم سوى مهبط دينهم مكة ، أو مثوى رسولهم ﷺ بالمدينة ، ينشدون فيهما الأمن والاطمئنان بعيداً عن الفتن والاضطرابات ، وأدوا

---

(١)العقد الثمين ، ج٥ ص ٥٣٢ برقم ١٩١٠ ، ج٦ ص ٤١-٤٧ برقم ١٩٦٨ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ص٨٧ ج٣ ص١٥٠ حوادث سنة ٧١٣هـ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٥ ص٣٣٢ ، ٥٣٤ .

رسـالتهم يعلمـون ويتعلمـون حبـا في التعليم وسـط مـا يحـوطهم مـن جـو روحـي بالحرمين ، وطمعاً في ثواب الله الكريم ، كما جمع الحج كثيرا من العلماء من البلدان الإسلامية المختلفة أفادوا في النهضة العلمية ، وشملت الدراسات في تلك الفترة : العقيدة والتفسير والحديث والفقه وسائر العلوم الدينية الأخرى ، والعلوم العربية المساعدة على فهمها ، أما العلوم العقلية فقد قل المشتغلون بها في الحرمين ، وفي المنشآت الاجتماعية التعليمية بالمدينتين المقدستين[1] عن بقية البلاد الإسلامية الأخرى[2] .

وكانت مجاورة الحرمين الشريفين أمل الكثيرين في هذه الفترة ، وساعد عليها الأموال الموقوفة المنتظمة سنويّا ، أو شهريّا ، وكثرة الصدقات من أهل الخير ومن أثرياء المسلمين ، وشملت الأوقاف إنشاء المبرات الخيرية التعليمية

---

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج١ ص٣٤٦ ، ابن خلدون ، مقدمته ص ٤٨٤-٤٨٨ ، السليمان ، العلاقات الحجازية المصرية ص٢٠٣، ٢٢،٢٢٣ .

(٢) ذكر المقريزي وغيره كثرة العلوم العقلية التي سادت هذه الفترة في مصر كالحساب والأحياء والكيمياء والطب الذى درس بمدرسة المهذبية الموجودة بحارة حلب خارج القاهرة ، بناها الحكيم مهذب الدين محمد بن أبي الوحش ، المعروف بابن أبي حليقة تصغير حلقة ، رئيس الأطباء بمصر ولي رياستها في ١١ من رمضان سنة ٦٨٤هـ ، واستقر مدرس الطب بالبيمارستان المنصوري . المقريزي ، الخطط ، ج٢ ص٣٩٧ ، أحمد بدوي ، الحياة العقلية ، ص٧٧ ، ٢٩٩ . أما دراسة العلوم العقلية بالمدينتين المقدستين ، فكانت قليلة ، فنادراً ما تذكر المصادر عمن زاولها ، وهذا يدل على أن تدريس المواد الدينية قد طغى على المواد العقلية ، ولم نجد لمدارستها وفرة ، وأفاد الفاسي بذلك عن مجاور مكة علي بن مسعود بن فيروز ، المتوفى سنة ٦٥٥هـ ، وقد ناهز المائة من عمره ، نشاطه العلمي ، كان سماعه من أبي زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي ، وأجاز لابن مسدى ، وإضافة لمعارفه الدينية ، فقد كان مجبراً بالبيمارستان المستنصري بمكة بالجانب الشمالي من المسجد الحرام ، وقفه المستنصر العباسي سنة ٦٢٨هـ . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٦ ص٢٦٨ برقم ٣٠٢٦ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ص٤٩ .

وفي التعريف بمجاور المدينة عبدالله بن حجاج ، أبومحمد المغربي ، المتوفى سنة ٧٠١هـ ، نقل السخاوي مما قيل عنه إنه كان " من الشيوخ المعدودين في زمانهم من العلماء والحكماء المجدين ، المطلعين على علوم الأولين من حكمة ومنطق ، وهندسة وفلسفة ، خيرا منقطعاً للمجاورة ، مشغولاً بنفسه ، جمع من الكتب الجليلة ما لا يجمعه أحد من جنسه ، أتى بها من بلاده مشتملة على أصول وأمهات ، ودواوين من تفسير وفقه ، وحديث ، وتاريخ ، وطب ومنطق ، وحكمة وعلوم شتى لايعرفها أهل زماننا ، ولايفهمها إلا من عالج أصولها ، وأدرك شيوخها، وقل من يفهمها من أهل المدينة ، وكان فيها من كل فن تصانيف عدة " . السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ص٢٩ برقم٢٠٠٦.

كالأربطة والمدارس ، والمقامات ، وإقامة الدروس في الحرمين الشريفين ، ورصد الأموال للكتب والمجاورين .

وبازدهار الحياة الاجتماعية والاقتصادية ازدهرت الحياة العلمية ، ووفرت المنشآت الوقفية للمجاور جوا مريحاً في جميع شؤون حياته ، ووجد فيها أمنه وطمأنينته ، ولم يعد يخشى ألا يجد مأوى أو طعاماً إذا ضاقت به سبل العيش بجوار الحرمين الشريفين[١] ، وكثرة رواد العلم من الدارسين والمدرسين كانت ملحوظة في الرحلات العلمية التى لعبت دوراً بارزاً في إحياء العلوم والمعارف .

والرحلة إلى أرض الحجاز أشار إليها ابن خلدون بأنها أطيب الرحلات ، وقال أيضا ". . . وأما مالك فاختص بمذهبه أهل المغرب لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذٍ دار العلم . . . فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التى هي لأهل العراق ، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل . . "[٢] . ومن خلال إشارات ابن خلدون وغيره تتضح ثمار هذه الرحلات خاصة إلى الأماكن المقدسة .

وتوالت هجرات العلماء وطلبة العلم بصورة ملحوظة إلى حرمي مكة والمدينة وكان من بينهم كتاب الرحلات الأدباء الذين رافقوا قوافل الحج في كل مكان ، ولم يتركوا شاردة أو واردة إلا سجلوها ضمن مؤلفاتهم التي أصبحت تراثا خالداً لمن أتى بعدهم ، كابن رشيد الذي حج في عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م ، وعاد في العام الذي بعده[٣] .

---

(١) ابن بطوطة ، رحلته ص١٢٤ ، ١٢٥ . ومكانة الحرمين الشريفين في قلوب المسلمين جعلت الكثير يفضلون مجاورتهما للاستزادة من علوم الدين بصرف النظر عن المناصب الدنيوية التي كانوا يبتعدون عنها ، رغبة في المجاورة وحبّا في تحصيل علومهم ومعارفهم ، كنصر الله بن سالم بن محمد ابن سالم بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى التغلبي ، الذي كان ناظراً للدواوين والخزانة ، وحج وجاور بمكة ، وسمع الحديث وأسمعه ، ومات بدمشق سنة ٦٩٨هـ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٤ ص٧ .

(٢) ابن خلدون ، مقدمته ص٤٩٧ ، ٤٩٨ .

(٣) قام ابن رشيد برحلته إلى بلاد المشرق ، فزار مصر والشام وبلاد الحجاز في مكة والمدينة بطريق الحاج الشامي في ٢٣ من ذي القعدة سنة ٦٨٤هـ ، وعاد منها بعد حجه في ٢٨ من ذي الحجة سنة ٦٨٤هـ بطريق الساحل ماراً بالعقبة في

ومن العلماء الكتاب الذين تألقوا بمعارفهم في الحرمين الشريفين ، العبدري[1] ، الذي تميز بتصدره في مناظراته لنقد أساطين العلم في كل أنواع المعارف بجرأة لاتصدر إلا عن متمكن في علومه محيط بمعارفه[2] .

وما كان لهذه النهضة العلمية أن تتم إلا بمصارف الأوقاف والأموال الواسعة التي كان الإنفاق فيها على التعليم مطلباً رئيسيّاً ، ولذلك نجد السلطان الأشرف شعبان يخصص مبالغ سخية لمدرسي المذاهب الأربعة ، على أن يتفرغوا للاشتغال بالعلم الشريف ، ونشره ، وإحياء معالم الدين ، وشد أزره تجاه الكعبة الشريفة على عادة أمثالهم ، وقد خصص أسماء علماء ، منهم : العالم الشهير شهاب الدين ، أحمد بن ظهيرة المكي الشافعي[3] ، ولم ينس السلطان المذكور مدرسي المذاهب الأربعة بالمدينة وطلابهم ، فقرر لهم أموالاً كثيرة ، واشترط عليهم كما اشترط على نظرائهم بمكة المكرمة ، كما خصص مبالغ كبيرة لمدرسي الحديث وطلبته ، وقارئ الجمعة بالحرم النبوي الشريف ، ولم يغفل متصدر العلم بالروضة الشريفة ، فرتبه وخصص له مبالغ كبيرة تصرف سنويّا ، لكنه لم يعين ولم يحدد أوقات عمله ، كما حدث بالنسبة لأقرانه في مكة المكرمة ، فقد حدد عملهم بها تجاه الكعبة الشريفة ، وشرط على عالم المدينة الاشتغال بالعلم الشريف ونشره وإحياء معالم الدين وشد أزره على عادة أمثاله ، كما أنه عين في مكة ثلاثة من المشتغلين بالعلم ، بينما عين

---

٢٥ من محرم سنة ٦٨٤هـ ، ودون كثيراً من مشاهداته بكتاب رحلته المذكور . حمد الجاسر ، أشهر رحلات الحج ، ص١٦-١٩ .

(١) العبدري ، رحلته ، ص (خ) ، ١٥٣، ١٦٩، ٢٠١، ٢٢٠ .

(٢) العبدري ، رحلته ، ص (خ) ، (س) ، ص ٢٠٠، ٢٠٦ ، سيد بكر ، الملامح الجغرافية ص ٧٩ .

(٣) أحمد بن ظهيرة بن أحمد بن عطية بن ظهيرة المخزومي ، قاضي مكة وخطيبها ، شهاب الدين أبوالعباس ، وفاته في ربيع الأول سنة ٧٩٢هـ . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ص٥٢-٥٣ ، ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج٣ ص٣٥-٣٦ ، السيوطي ، طبقات الحفاظ ، ص٥٤٨.

واحداً في المدينة المنورة ، ولم يذكر اسمه[١] ، وقد جرى على ذلك أغلب الواقفين[٢]، وقد وجد علماء هذه المذاهب حظوتهم فعاشوا عيشة هنيئة طيبة تحت ظل هذه الأوقاف التي أثرت على ازدهار هذه العلوم، وانعكست على روادها ثراء على أوجه وسبل معيشتهم .

واستتبع وجود العلماء من المدرسين والقضاة والخطباء كثرة الطلبة ، وراغبي العلم من مختلف البلاد الإسلامية ، وأكثرهم كانوا شبانًا قدموا في موسم الحج ، وقلما خلا عام من أعوام هذه الفترة من علماء مشهورين بالحرمين ، يأخذ عنهم شبان العالم ويحذون حذوهم في الدراسة والاطلاع ، ولم يعد أكثر هؤلاء الدارسين إلى بلادهم ، فشكلوا على مر العصور جزءاً من أجزاء مجتمع المدينتين المقدستين ، وتعلموا ، وتزوجوا وعلموا أولادهم بحرمي مكة والمدينة ، وقد رفعهم جدهم ونشاطهم في طلب العلم إلى منزلة علمية أهلتهم للتدريس لغيرهم من الطلاب ، سواء كانوا في مقتبل أعمارهم ، أو كانوا أقل علماً منهم ، وكثرة الطلاب في الحرمين الشريفين لم يعقها فقر أو عقبات على امتداد هذه الفترة وغيرها[٣] . فقد تكلفت الأوقاف بالرعاية العلمية .

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف الأشرف شعبان ، ص ١٢١.

(٢) من الوثائق التي اهتمت بتدريس هذه العلوم وخصصت لعلمائها رواتب سنوية ، أو شهرية حجة وقف السلطان قانصوه الغوري ، المؤرخة في محرم/ شعبان سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م ، رقم الوثيقة (٨٨٤ق) أوقاف ، حجة وقف الأمير صواب بن عبدالله ، المؤرخة في ٢٦ من ربيع الآخر سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م ، رقم الوثيقة (٢٧٤) محفظة (٤٢) دار الوثائق القومية ، حجة وقف جمال الدين بن أبي المحاسن ، المؤرخة في ١٠ من ذي القعدة سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م ، رقم الوثيقة (١٠٦) محفظة (١٧) دار الوثائق القومية ، وغيرها .

(٣) لم يكن الفقر عائقاً لراغبي العلم والساعين لارتشاف المعرفة ، فالإمام الشافعي صاحب المذهب المشهور كان فقيراً ، ولم يجد من يمده حتى بوسائل الكتابة ، لكنه حين التحق بالحرمين الشريفين ، وانضم إلى الإمام مالك رضي الله عنه بالمدينة وجد منه الرعاية وحسن التقدير ، مما أعانه على طلب علمه وتحصيله حتى صار أحد الأئمة الأربعة ، والإمام الغزالي أيضا على الرغم من فقره فقد حصل معارفه من مشاهير علماء مكة والمدينة وسائر البلاد . ابن قنفذ القسنطيني ، (أبوالعباس أحمد بن حسن بن علي الخطيب) (ت٨٠٩هـ) ، الوفيات ، تحقيق عادل نويهض ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧١م ، ط٢ ، ١٩٧٨م ، ص١٣٥، الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج١ ، ص٢٧٤ — ٢٧٧ ، الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٤ ص١٠.

وحث ابن جبير على الذهاب إلى الشرق [١] حيث الحلقات بالحرمين التي شاهدها[٢] ، كماشاهدها التجيبي أيضاً ، وذكر من أخذ عنهم من كبار علماء الحرمين في حجه عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م[٣] ، وقد وفرت الأوقاف الواسعة الكثير من الأموال والمؤن لرواد العلم الذين تزايدت أعدادهم في هذه الفترة وسط ما أحيط بهم من تشجيع مادي ومعنوي ، فضلاً عما تميزوا به عن غيرهم من وجودهم في حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ..

وكان المتبع في إلقاء الدروس ، أن يلقى الأستاذ ما أعده من محفوظاته مراعياً أحوال طلابه في دراستهم عليه ، فيبطئ حين يلقي عليهم ما أعده ، فقرة فقرة ، أو حديثا حديثا مع اتصال السند ، ويعقب بالشرح على ما أملاه ، ومن حين لآخر يتوقف لشرح لفظ غريب ، أو جملة غامضة ، والطلبة معه يسجلون على هوامش ما معهم من كتب ، وكان لهذه الكتابات أهميتها .

وتباينت أنظمة الدراسة في تلك الفترة ، فهناك مدارس نظامية مخصصة كان يدرس فيها عدة أساتذة ، يقضي الطلاب فيها سنوات محددة ، ثم يخرجون بإجازات من مدرسيهم توضح ما قرأوه ، ثم تفتح لهم الأبواب للتدريس لغيرهم[٤] ، وهناك دراسة بالمقامات الأربعة أي مقامات المذاهب الأربعة بالحرمين ، وفي سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م رتب فيها الأمير أرغون درساً للحنفية ، ودروساً بالمدارس الأخرى برواتب ثابتة لرواد العلم من علمائه وطلابه[٥]، وهناك الكثيرون من الطلبة الذين ترددوا على الحرمين والأربطة والمدارس ، وصرفوا هممهم إلى تحصيل المعارف ، فكانوا أحفظ

---

(١) ذكر ابن جبير " . . . فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ، ويتغرب في طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة فأولها فراغ البال ، من أمر المعيشة ثم خاطب كل مهموم بأن طلب المعيشة يحول بينه وبين مقصده وفي وطنه من الطلب العلمي ، قائلاً : " فهذا الشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل أيها المجتهد بسلام . . ". ابن جبير ، رحلته ، ص ١١٩، ٢٠٠ .

(٢) ابن جبير ، رحلته ، ص٥٠، ٥١، ٢٠٩ .

(٣) التجيبي ، مستفاد الرحلة ، ص٣٦٢ .

(٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٧ ص٨٤ ، ج٩ ص١٩ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ص٢٣١-٢٣٢ ، ج٧ ص٣١٦ وما بعدها .

(٥) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ص٣٢٨ ، السليمان ، العلاقات الحجازية ، ص٢٢٤ .

أهل زمانهم علماً وتحديثاً وتدريساً ، وقد بلغ مشايخ بعضهم في الحرمين وغيرهما ، ألفاً وثلاثمائة[١] ، ومما ساعد على كثرة الطلبة والعلماء وازدهار الحياة العلمية بالحرمين الشريفين كثرة الكتب الموقوفة المعدّة للدراسة والاطلاع بالحرمين ، وبمدارس مكة والمدينة والأربطة بهما ، وقد أشار إليها الواقفون من السلاطين وغيرهم في وثائق وقفهم[٢] .

ومن الدروس التي شجعتها الأوقاف درس ليلبغا الخاصكى[٣] ، وكان من أهم الدروس التي أفادت رواد العلم بالمسجد الحرام ، وقد قرره يلبغا في شوال سنة ٧٦٣هـ/١٣٦١م ، وخصصه لتدريس المذهب الحنفي ، لأنه كان يميل إليه ، وكان يجزل العطاء لمن يقدم على دراسته ، واجتذبت أعطياته بعض أنصار المذهب الشافعي ، وقد ولي تدريس هذا المذهب الكثير من العلماء المشهورين بتدريس الحنفية ، وأقبل عليه العديد من طلاب العلم والمعرفة ، وممن ولى تدريسه ضياء الدين محمد بن محمد بن سعيد الحنفي (٧٨٠هـ/١٣٧٨م) ، وقد كان مشهوراً بزيادة ميله لهذا المذهب ، وكان عالماً بارزاً في تدريسه وتدريس اللغة العربية[٤] ، وتولى التدريس بعده أبناؤه ثم أحفاده ، وقد تولى هذا الدرس

---

(١) مثل شرف الدين عبدالمؤمن بن خلف الدمياطي ، المتوفى سنة ٧٠٥هـ قال عنه ابن كثير : رحل وطاف وحصل وجمع فأوعى ، ولكن ما منع ولا بخل ، بل بذل وصنف ونشر العلم ، وجمع معجماً لمشايخه الذين لقيهم بالحرمين ، وغيرهما يزيدون على الألف وثلاثمائة شيخ ، وهو مجلدان ، ابن كثير البداية والنهاية ، ج١٤ ص٤٠ وقد سمع شرف الدين الدمياطي برباط خاتون فضائل العباس لحمزة السهمي على كثير من العلماء كأبي بكر بن عمر بن شهاب الهمداني (ت٦٤٤هـ). الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ص٣٣١ ، العقد الثمين ، ج٨ ص٢٣٨-٢٣٩ برقم ٣٣٧٢ من ترجمة المسموع عليه .

(٢) حجة وقف أبي بكر بن مزهر الأنصاري ، رقم الوثيقة (١٧٥) ، محفظة (٢٧) دار الوثائق القومية .

(٣) يلبغا بن عبدالله الخاصكي الناصري الأمير الكبير المشهور، وكان ليلبغا صدقات كثيرة على طلبة العلم ، ومعروف كثير في بلاد الحجاز ، وهو الذي حط المكس عن الحجاج بمكة ، وعوض أمراءها بقرى مصر ، وكان يتعصب للحنفية حتى كان يعطى من يتمذهب لأبي حنيفة العطاء الجزيل ، ورتب لهم الجامكية الزائدة ، فتحول جمع من الشافعية لأجل الدنيا ، وحاول في آخر عمره أن يجلس الحنفي فوق الشافعي ، فعاجله القتل ، وذلك أن المماليك اجتمعوا على قتله ، وذلك في ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ . ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٤ ص٤٣٨-٤٣٩ .

(٤) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ص٢٩١،٢٩٢ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ص٢٩٦.

ابنه أحمد (ت ٨٢٥هـ/١٤٢١م)[١] ، وانتفع من حلقاته العلمية الكثيرون من رواد المعرفة ، وقد جرت العادة أن يحظى الدارس عند إتمامه لأحد الكتب أو إنهائه موضوعاً معيناً ، بإجازة من شيخه ، وبحصوله عليهاكان يخول له تدريس ما أجيز فيه ، أو رئاسة إحدى الحلقات العلمية ، وأعداد من أجازوا وأجيزوا في هذه الفترة كثيرون[٢] ، وقد تبين من خلال عرض ماسبق أن ازدهار الحياة العلمية كان من أسبابه : رعاية العلماء والطلاب ، وضمان وسائل معيشتهم وأماكن تعليمهم ، فالأموال الموقوفة عليهم من السلاطين وأهل الخير قد أسهمت بشكل أو بآخر في إثراء هذه الحركة .

أ- كثرة العلماء بالمدينتين المقدستين : أجاز الفقهاء الوقف على رواد العلم من العلماء والطلاب ، واعتبروا ذلك من أوجه البر ، وأن الإنفاق في هذا الوجه يعادل الجهاد في سبيل الله[٣] استناداً إلى الأحاديث النبوية مثل قوله ﷺ : (أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ، أما أهل العلم فدلوا الناس على ماجاء به الرسول ﷺ ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ماجاءت به الرسل)[٤] ، وقوله ﷺ (يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء)[٥] أي أن المداد الذي ينفقه العالم في تأليف

---

(١) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ص١٦٩ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ج٢ ص١٧٩، ١٨٣، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٢ ص١٧٩.

(٢) الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ص٣٣١-٣٨٣ برقم ٣٨ .

(٣) ابن عابدين ، رد المحتار ، ج٣ ص٣٨٧ ، وله شاهد في حديث الترمذي بكتاب الصلة ، برقم ١٨٩٨ ، ج٤ ص٧٤ ، عن ابن مسعود مرفوعاً .

(٤) رواه بلفظه الديلمي في كتاب الفردوس ، ج٣ ص٨٥، وذكره المتقي بكنز العمال ، برقم ١٠٦٤٧ ، وقال عزاه السيوطي للديلمي عن ابن عباس ، وذكره الزبيدي ، بإتحاف السادة المتقين ، ج١ ص٧٣ ، وقال أخرجه أبونعيم في فضل العالم العفيف .

(٥) أخرجه السهمي في تاريخ جرجان ، ص٩٢، عن النعمان بن بشير مرسلاً ، وابن الجوزي بالعلل المتناهية ، ج١ ص٧١ ، عن ابن عمر قال عن رسول الله ﷺ ، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم ، ج١ ص٥٥ ، وعزاه لإبراهيم بلاغاً ، وذكره المتقي ، بكنز العمال ، برقم ٢٨٩٠٢ ، وعزاه لابن الجوزي بالعلل ، وذكره الزبيدي ، بالإتحاف ، ج١ ص٤١ ، وعزاه لابن عبدالبر في العلم بسند ضعيف عن أبي الدرداء ، وذكره المناوي بفيض القدير ، ج٦ ص٤٦٦ ، وعزاه للشيرازي في الألقاب عن أنس وقال حديث ضعيف .

الكتب النافعة للناس يعادل دم الشهيد ، بل رجحته بعض الروايات[١]، وبالتالي فإن إنشاء المؤسسات الثقافية كالمدارس والأربطة ، ومكاتب تحفيظ القرآن وغيرها ، والنفقة على من يقوم بالتدريس فيها من العلماء وغيرهم ، تعادل ، أو ترجح نفقة الجهاد في سبيل الله تعالى[٢] ، وعلى هذا الأساس حرص الواقفون من سلاطين المماليك وغيرهم على إنشاء المدارس السنية ، وقد ساروا في ذلك على نهج أساتذتهم الأيوبيين في محاربة التشيع الذي كان سائداً في الدولة الفاطمية ، وزاد عدد المدارس في عهد المماليك لدرجة كبيرة ، وتكفلت الأوقاف بصرف ريعها على أوجه الحياة العلمية ، فتوافر المناخ العلمي السليم الذي ساعد بدوره على جذب العلماء بمختلف تخصصاتهم، وكان منهم الذين عكفوا على تحفيظ القرآن الكريم ، وتجويده ، وتلاوته بقراءات مختلفة[٣] .

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ج١ ، ص ٥ .

(٢) الزبيدي ، التجريد الصحيح ، ج٢ ص ٧٥ .

(٣) كان من هؤلاء بالمسجد الحرام ، يوسف بن علي بن سليمان القروي ، المجاور ، المحفظ للقرآن الكريم بالحرم الشريف ، سمع على الزين الطبري وغيره بمكة ، وكان قارئ الحديث بدرس وزير بغداد في الحرم الشريف ، وتوفي بمكة بعد أن جاور بها سنين كثيرة وذلك في سنة ٧٦٤هـ . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٧ ص٤٨٨ برقم ٢٧٧٧ ، وعبدالمؤمن بن عبدالدائم بن علي السمنودي - ويقال له مؤمن ، وبها اشتهر – وكان مؤدبا بالحرم المكي ، جاور بمكة سنين ، على طريقة حسنة ، وانتشر علمه ، ووفاته بمكة سنة ٨٠٧هـ ، ودفن بالمعلاة . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٥ ص٥١٩،٥٢٠ برقم ١٨٩٨ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ص٨٩ .

وممن برزوا في أنشطتهم العلمية ، واصبحوا لامعين في تحفيظهم للقرآن الكريم صالح بن محمود بن محمد ، المجاور بمكة سنين كثيرة ، والمتوفى سنة ٦٥٧هـ وإضافة لما ذكر فقد كان أحد المقرئين بالسبع ، وهوالفقيه الإمام المحدث بالحرم . الفاسي العقد الثمين ، ج٥ ص٢٩ برقم ١٣٩٣ . وعثمان بن محمد بن عثمان ، المولود بالحنبوشية من بلاد الفيوم بمصر سنة ٦٣٠هـ ، وفاته سنة ٧١٣هـ ، وتميز بنشاطه في إقراء القرآن الكريم بمصر وبحرمي مكة والمدينة ، وتلا القرآن بالسبع ، كان إماماً للحديث والقراءات ، وكان له أثر كبير في الإقراء والتدريس ، وانتفع به خلق كبير . اليافعي ، مرآة الجنان ، ج٤ ص٢٥٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٤ ص٦٩ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج٦ ص٤١- ٤٧ برقم ١٩٦٨ ، وكان بمكة عبدالله بن عبدالحق المصري ، أثره ملحوظ في تحفيظ القرآن بغير أجر تجاه الكعبة ، وكان محدثاً ، أقرأ وقرأ عليه جماعة ، منهم أبوعبدالله الوادياشي ، عدة ختم ، ومن حبه للقرآن حفظه لابنه محمد ، وخلفه في الحرم متصدرا للإقراء والعلم . التجيبي ، مستفاد الرحلة ، ص٤٣٣- ٤٣٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٤ ص١٠٠ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج٥ ص١٩٦- ١٩٩ برقم ١٥٦٢ ، وقد حفظ القرآن بالمدينة رضوان المغربي . السخاوي ، التحفة اللطيفة ج١ ص٢٨٩ برقم ٩٦٥ ، وحفظ القرآن بالمدينة أيضاً الحسن القطان ، وانتشرت معارفه بالحرم النبوي . السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ص٣٤٨ برقم ١٢٦ .

عرفت قراءة القرآن ، في بعض حجج الواقفين باسم الرباع ، أو (الربعة) ، أى قراءة ربع من القرآن الكريم ، وعادة مايتناوب القراءة مجموعة من القراء في حلقة ، يحدد مكانها أحيانا الواقف وقد يغفله لتقرأ في أي مكان بحرمي مكة أو المدينة لكن كثيراً ماينص الواقف على شيخهم الذي يدعى بشيخ القراء ، أو المتصدر للقراءة ، أو المتصدر للإقراء ، وعادة مايشترط في نظام قراءتهم أن يكونوا مجتمعين ، وبأصوات جهرية عقيب الصلوات الخمس يوميّا في المسجد الحرام ، أو المسجد النبوي ، أو هما معاً ، يرتبهم الناظر في الحرم ، وأخيراً يهدون ثواب ذلك للواقف ، ولوالديه وذريته ولجميع المسلمين ، وترتب الوثائق لكل من هؤلاء ومن درسوا على أيديهم وتحلقوا في حلقاتهم رواتب سنوية أو شهرية ثابتة ، وجد فيها العلماء دافعا قويا للتسابق في تحفيظ القرآن وتدريس القراءات الخاصة به عملاً بقول الرسول ﷺ : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[1]، وعلى هذا الغرض جاء في حجة وقف المصونة فاطمة زوجة الزيني شعبان ، أن يصرف جزء من ريع وقفها على أوجه الخير ، ومنها ما يصرف كل سنة لقارئ المصحف الشريف " . . الذي قررته الواقفة المذكورة أعلاه بالحرم النبوي الشريف على الحالّ به أفضل الصلاة والسلام ماجملته من الذهب . . . ديناران ذهباً أو مايقوم مقامها من النقود على أن يقرأ في صبيحة كل يوم بالمصحف الشريف عند الضريح الشريف النبوي حزباً شريفاً من القرآن من تجزئة ستين حزباً ، ويهدى ثواب ذلك لسيدنا رسول اللّه ﷺ وللواقفة المذكورة ولوالديها ولأقاربها ولذريتها ولجميع المسلمين . . . "وعن الحرم المكي ذكرت : " . . . ويصرف في كل سنة من السنين لرجل من أهل الخير يقرأ في كل يوم بالمصحف الشريف بمقام سيدنا خليل الرحمن صلوات اللّه وسلامه عليه بالحرم الشريف المكي . . ما جملته من الذهب ديناران ذهباً أو مايقوم مقامهما من

---

(١) الحديث مروى عن عثمان بن عفان رضي اللّه عنه ، رواه البخاري ومسلم وأبوداود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وغيرهم في كتاب (الترغيب والترهيب) ج٣ ص٢ (انظر : ابن الإخوة ، معالم القربة في أحكام الحسبة ص٢٦٠ حاشية رقم ١) .

النقود على أن يقرأ في كل يوم حزباً شريفاً من القرآن العظيم ، ويهدى ثواب ذلك للنبي ﷺ وللواقفة المذكورة ولوالديها ولذريتها ولجميع المسلمين . . . "(١) .

وخصص السلطان الغوري في وثيقة وقفه مبالغ كبيرة تصرف سنويّا في كل سنة تمضي من سني الأهلة ، لرجل من أهل الخير شريطة حفظه لكتاب الله تعالى من المقيمين في مكة ، وأسند هذا الأمر إلى ناظر وقفه ، أو المتولي عليه ، ولفت نظره في صورة شروط منها أن يقرأ تجاه البيت في أى وقت أراد هذا القارئ ليلاً أو نهاراً لكن عليه أن يختم قراءته بسورة الإخلاص والمعوذتين وخاتمة الكتاب العزيز ، وفواتيح سورة البقرة وخواتيمها ، وبعدها يواصل ذكر الله تعالى مصلياً على نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، داعياً ، ويهدي في نهاية ذلك ثواب هذه القراءة والأذكار والصلوات لسيد الأولين والآخرين رسول رب العالمين محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ، ثم إلى الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، ثم إلى الآل والصحابة والتابعين ، وجميع العلماء ، وأولياء الله الصالحين ، ويواصل دعاءه في النهاية لصاحب هذا الوقف السلطان الأشرف قانصوه الغوري وأولاده وذريته . ولم ينس السلطان الغوري المدينة ، فخصص لها عالماً حافظاً لكتاب الله على أن يقرأ يوميّا ماتيسرت له قراءاته من القرآن بالروضة تجاه الحجرة الشريفة ويدعو بما كان نظيره داعياً في مكة المكرمة .

كما خصص السلطان الغوري جزءاً من ريع وقفه لعالم حافظ متقن لحديث رسول الله ﷺ على أن يقرأ في كل سنة من أوائل شهر رجب وشعبان ورمضان صحيح البخاري بالروضة الشريفة تجاه الحجرة الشريفة ، ويختم هذه القراءة بذكر الله والصلاة على النبي ﷺ في كل مجلس ، داعياً على حسب

---

(١) حجة وقف المصونة فاطمة زوجة الزيني شعبان ، رقم الوثيقة (١٥٠) محفظة (٢٣) دار الوثائق القومية سطر رقم ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠ .

ماسبق ذكره[١] ، وقرر الواقف في ذلك العالم الجليل الشيخ زين الدين بن القطان[٢] .

وذكرت المصادر عدداً وافراً من علماء الحديث في كل من مكة والمدينة ، فقد حدث بمكة - على سبيل المثال - عبدالله بن محمد العفيف النشاوري[٣] ، وحدث بالمدينة محمد الشرف[٤] .

وإلى جانب محفظي القرآن الكريم ، والعلماء بقراءاته ، كثر الفقهاء من المذاهب الأربعة المشهورة وقد أفاضت المصادر في سرد الأنشطة العلمية لهؤلاء ، وحدد السلطان الأشرف شعبان أربعة من العلماء لتدريس المذاهب الأربعة المشهورة : الشافعي والمالكي والحنبلي والحنفي ، ورتبت الوثيقة لكل منهم أعداد الدارسين عليه ، وخصصت رواتب سخية لمشايخ هذه المذاهب الدينية[٥]، وقد أفرد الشيخ شهاب الدين[٦] بمبلغ كبير مقابل تصديه

(١) حجة وقف السلطان قانصوه الغوري ، رقم الوثيقة (٨٨٢ق) أوقاف ، ص ٥٥٥ .

(٢) حجة وقف السلطان الغوري ، رقم الوثيقة (٨٨٢ق) أوقاف ، وقد ذكر الواقف في هذه الحجة عن هذا العالم أنه سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام العالم العامل ، العلامة المحقق شمس الدين خطيب الخطباء ، فصيح البلغاء ، عالم المسلمين أبو عبدالله محمد بن المرحوم الشيخ زين الدين ابن القطان ، المقرئ المدني ، الإمام الخطيب بالمحراب الشريف والمنبر المعظم المنيف ، ودعا له الواقف بقوله أدام الله تعالى النفع بعلومه ، وكان حيّا في سنة ٩١٨هـ واستمر في منصبه حتى عزل بالقاضي أحمد المغربي الغرياني . السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ص٦٠ .

(٣) عبدالله بن محمد العفيف النشاوري (ت٧٩٠هـ) وحدث بالبخاري وسمعه عليه ابن حجر المؤرخ المشهور سنة ٧٨٥هـ ، وتحديثه كان كثيراً بمكة ، فسمع عليه تقي الدين الفاسي شيئاً من سنن النسائي ، وسمع عليه محمد بن جامع بن إبراهيم البوصيري (ت٨٢٤هـ) أجزاء من الثقفيات ، وقرأ عليه بمكة كثيراً من الحديث محمد بن محمد بن محمد القاياني (٨٠٨هـ) ، كما سمع عليه يوسف بن عيسى بن عباس التجيبي (ت٧٩٤هـ) السيرة للمحب الطبري ، والشفاء للقاضي عياض وغيرهم كثيرون . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٥ ص٢٧٠ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٢ ص٣٠٠ ، إنباء الغمر ج١ ص٣٥٨ .

(٤) محدث المدينة محمد شرف (ت٨٥٩هـ) وقد كثر تحديثه بها، فقرأ عليه أخوه محمد الصحيحين والشفا بالروضة ، وآخرون كأبي الفتح بن تقى ، وانتقل إلى مكة ، فحدث بالكتب الستة وغيرها ، وسمع عليه الكثير من القادمين إلى مكة والمدينة ومن أهاليهما . السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٣ ص٥٣٥ ، ٥٣٧ برقم ٣٦٧٨ .

(٥) راشد القحطاني ، أوقاف الأشرف شعبان ص ٩٦ .

(٦) هو : أحمد بن ظهيرة بن أحمد بن عطية بن ظهيرة المخزومي ، الملقب بشهاب الدين ، والمكني بأبي العباس ، المكي الشافعي ، قاضي مكة وخطيبها ، أثرى الحياة العلمية بمكة سماعاً وإسماعاً ، قراءة وإقراء ، وفاته في

للاشتغال بالعلم الشريف ونشره وإحياء معالم الدين وشد أزره ، يوميّاً تجاه الكعبة الشريفة كما هو متبع على عادة أمثاله ، وقد وقع اختيار الواقف على علماء غير ابن ظهيرة المذكور وخصص لهم مبالغ سخية ، كالشيخ الصالح محمد بن يعقوب وغيره[١] ، وقد اشترط على هؤلاء اشتغالهم بالعلم ، وتصدرهم له بنشره ، وذيوعه بين رواده على عادة أمثالهم المشهورين بتبليغه على من تحلقوا عليهم في حلقاتهم العلمية المشهورة[٢] ومن الملاحظ أن الواقف خصص مرتبات لثلاثة فقط من علماء المذاهب الأربعة ، بخلاف فقيه وشيخ المذهب الحنبلي الذي لم يقرر أو يصرف له راتباً ، كما لوحظ زيادة راتب شيخ المذهب الحنفي إلى ألف درهم كراتب شيخ المذهب الشافعي محمد بن يعقوب السابق ، تقديراً لوالده المشهور بعلمه تعليماً وتصنيفاً فهو صاحب التنبيه والإشراف ، وأشارت الوثيقة في النهاية ، إلى أنه إن تعذر اشتغال العلماء المذكورين ، أو واحد منهم يقرر الناظر على الوقف بدلاً منهم على الصفة المذكورة التي قررها الواقف في وثيقة وقفه . أما المدينة فقد خصص رواتب سخية لمدرسي المذاهب الأربعة عدا مدرس الحنابلة الذي قل راتبه عن مدرس المذاهب الأخرى ، ولكن

ربيع الأول سنة ٧٩٢هـ . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ص٥٢- ٥٣ ، ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج٣ ص٣٥، ٣٦، السيوطي ، طبقات الحفاظ ، ص ٥٤٨ .

(١) مثل الشيخ العالم الجليل الصالح عبدالرحمن بن أبي الخير ، المكي المالكي ، وقد حدد الواقف له مبلغ خمسمائة درهم سنويّا نظير اشتغاله بالعلم كسابقه .

(٢) اشترط بعض الواقفين صفات خاصة يجب أن تتوافر في العالم الذي يقوم بتدريس المذهب ، ومن أمثلة ذلك ما اشترطته وثيقة وقف جمال الدين الأستادار بأن يكون من " أهل العلم والصلاح شافعي المذهب ، عالماً بمذهب الإمام الشافعي ، حسن الهيئة ، سني الاعتقاد ، حافظاً لنقول الفقهاء ، وأقاويل العلماء ، واختلاف المذاهب ، ونصوص الإمام الشافعي ، عارفاً بكل كتب السادة الشافعية ، متبيناً مسائلها ، وموضحاً مشكلها بالأحكام بدلالاتها الشرعية والفقهية ، وتسهيل عسيرها ، أهلاً للتدريس والفتوى " ، وثيقة وقف جمال الدين الأستادار ، رقم الوثيقة (١٠٦) محفظة (١٧) دار الوثائق القومية ، وهناك وثيقة أخرى اشترط الواقف في عالم المذهب أن يكون " فيه أهلية الاشتغال بمذهبه ، عالماً بمذهب الإمام الحنفي " ، وثيقة وقف الأمير ضرغتمش ، رقم الوثيقة (٣١٩٥) أوقاف ، نشرها : عبداللطيف إبراهيم ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلدان ٢٧و ٢٨ سنة ١٩٦٥ و ١٩٦٦م .

اشترط على المدرسين أن يجلس كل منهم بالحرم النبوي في الأيام التي جرت بها العادة بحضور الدروس فيها[١] .

وتنصّ كثير من الوثائق على أنه إذا تعذر اشتغال العلماء الذين اختارهم الواقف في وثيقة وقفه ، أو واحد منهم ، فعلى ناظر الوقف أن يقرر منهم على الصفة المذكورة التي اشترطها الواقف في العالم وما يقوم بتدريسه ، ومكان وزمن دراسته ، ونحو ذلك مما اشترطه الواقفون في تنفيذ حيثيات وقفهم ، نظير مرتبات ثابتة لهؤلاء سنوية كانت أو شهرية ، والذين اشتغلوا بالتدريس بأجر كانوا كثرة ، أغفلت المصادر أسماءهم ربما لحساسيتهم أو تحرجهم بين نظرائهم الذين اشتغلوا بالتدريس بلا أجر ، ومن ذلك يظهر أن هناك دروساً كانت مخصصة قررها الواقفون من السلاطين وغيرهم بأجر كبير لمن عملوا في تدريسها واستمرت باستمرار اهتمام منشئيها بها ، بخلاف الدروس أو الحلقات العامة التي استمرت بوجود مدرسيها ، وعادة ما تنتهي بوفاتهم ، من هذه الدروس : علم القراءات ، وقد احتلت القراءات السبع والقراءات العشر[٢] مكاناً كبيراً عند دارسي هذا العلم ومدرسيه ، وساعد على الإقبال عليه كثرة مشاهير علمائه في مكة والمدينة ، وكان منهم بمكة عبد الله بن عبد المؤمن بن الوجيه بن عبد الله بن علي بن المبارك الذي أقرأ القرآن بمكة وسائر البلاد ، وصنف في القراءات :

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف الأشرف شعبان ، ص ١١٩ .

(٢) القراءات السبع تنسب إلى نافع بن عبدالرحمن ، وعبدالله بن كثير ، وأبي عمرو بن العلاء ، وعبدالله بن عامر ، وعاصم بن أبي النجود ، وحمزة بن حبيب ، وأبي الحسن الكسائي . والقراءات العشر تنسب إلى السبعة السابقين مضافا إليهم : أبومحمد يعقوب بن إسحاق ، وأبوجعفر بن يزيد ، وأبومحمد خلف بن هشام ، طاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، ط١ ، (بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ) ، ج٢، ص٢٤، ٤٠ ، وأشار ابن جبير إلى كثرة القراء والوعاظ في الحرم المكي الشريف وأن الأسئلة كانت تمطر عليهم للاستفسارات والتفقه في موسم الحج وكانت إجابتهم عليها سريعة بليغة . ابن جبير ، رحلته ، ص١٥٩- ١٦٠ .

المختار ، والكنز[١] ، وقاضي المدينة محمد بن سليمان المصري[٢] وغيرهما[٣] ممن تعددت أنشطتهم العلمية والتصنيفية .

وكان للنساء دورهن في النهضة العلمية في ذلك العصر ، ومنهن : علماء بنت أبي اليمن[٤] التي سمعت وأجيزت ، وروى عنها النجم بن فهد[٥] ، وزينب ابنة محمد بن أحمد التي سمعت كثيراً وأسمعت غيرها من الرجال والنساء ، وأجيزت وحدثت[٦] ، وغيرهما كثيرات .

ومن السلاطين المماليك من كان مولعا بشتى المعارف والعلوم ومقرّباً لأهل العلم في مجالسه ، فالناصر محمد بن قلاوون كان لا يقطع في الأمور إلا إذا أخذ رأي العلماء خاصة إذا تعلق الأمر بولاية منصب علمي أو قضائي بالحرمين الشريفين ، فكان يتحرى عمن يلي هذا المنصب ويوالي التحري

(١) كثرت عنايته بالقرآن الكريم إقراء أو تأليفاً وتدريساً ، وصنف في القراءات (المختار والكنز) ونظمه في قصيدة لامية سماها الكفاية ، وأبياتها ١٢٧٣ بيتاً ، ونظم الإرشاد للقلانسي ، وزاد عليه (الإدغام الكبير) لأبي عمرو وسماه (روضة الأزهار في قراءات العشرة أئمة الأمصار) وهو ١١٥٣ بيتاً ، وصنف (تحفة الإخوان في مآرب القرآن) وانتشرت معارفه في مكة والمدينة وغيرهما ، وكانت وفاته سنة ٧٤١هـ . ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٢ ص٢٧٠- ٢٧٢ برقم ٢١٦٣ .

(٢) كان قاضيا بالمدينة النبوية ، وتفقه ومهر في كثير من العلوم ، ومن مصنفاته في القراءات (النجوم الزاهرة في السبعة المتواترة) ، (وشرح الحاوي والألفية) ، وفاته سنة ٧٦٦هـ . ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٣ ص٤٥١ برقم ١٢١٥ ، السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٣ ص٥٨٠ ، الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٦ ص٢٧٧ .

(٣) مثل المحب الطبري أحمد بن عبدالله (ت٦٩٤هـ) ، وأنشطته العلمية كثيرة والتصنيفية أكثر . منها كتاب " مرسوم المصحف العثماني المدني " و " الكافي في غريب القرآن الجامع بين العزيزي والبيان " ، وكتاب " القراء " . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ص٣٧٢ ، السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ص٣٧٢ .

(٤) هي : علماء بنت الشيخ المقرئ عفيف الدين عبدالله بن عبدالحق عبدالأحد المخزومي الدلاصي ، المكية ، وفاتها بمكة سنة ٧٠٥هـ ، سمعت كثيراً وأسمعت ، وأجاز لها العز الفاروثي ، وكانت زوجة لابن خالها محمد بن الزين القسطلاني المكي فهي زوجة عالم وبنت عالم ومن أسرة علمية . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٨ ص٢٨٠ برقم ٣٤١٨ .

(٥) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١٢، ص ٨٤ .

(٦) هي : زينب بنت قاضي مكة وخطيبها ، كمال الدين أبي الفضل محمد بن أحمد بن عبدالعزيز بن القاسم بن عبدالرحمن ، الشهيد الناطق العقيلي الطالبي المكي ، وكنيتها أم السعد ، سمعت وأجيزت عن ابن أميلة وغيره من أصحاب الفخر بن النجاري وغيره ، وروت كثيراً من الأحاديث مع زوجها القاضي جمال الدين بن ظهيرة ، وكانت تقرأ القرآن ، وتذاكر بأخبار وأشعار حسنة ، وكانت ناظرة على أوقاف والدتها أم الحسين بنت القاضي شهاب الدين الطبري ، وفاتها بمكة سنة ٨٢٣هـ . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٨، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

والبحث عنه[١] آخذا برأي نظرائه المقربين إليه ، وتجلّت سعة ثقافة هذا السلطان في جمعه بين شتى المعارف الأدبية والعربية ، وقد قيل عنه إنه : " كان يتفقد مايعرض عليه من المراسيم ، ويصلحها ، ولا يعلم على مكتوب حتى يقرأه كله ، ولابد أن يستدرك على الكتاب مايبين لهم فيه الصواب " ، وكان " يطارح الأدباء بذهن رائق وذكاء مفرط "[٢] ، واهتمام السلاطين باللغة العربية يعود إلى تعلقهم بلغة القرآن الكريم الذي أنزل بلسان عربي مبين ، فضلاً عن كونها لغة العالم الإسلامي[٣] ، وحاجتهم إليها كانت ضرورية من حيث كتابة التقاليد[٤] ، والأمور الأخرى كالقضاء والتشريع الذي كان لا يتم إلا باللغة العربية ومعرفة أدق أمورها النحوية ، وتدعيماً لذلك شجعوا علماء العربية بأوقافهم الواسعة التي فرجت همومهم وبدلتها أمنا مستقراً أهّلهم لمواصلة رسالتهم العلمية في الحرمين الشريفين ، ثم منهما إلى سائر بلاد المسلمين[٥] .

---

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص١٤٧- ١٤٨ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج١ ق٣ ، ص٧٩١ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص١٧٣- ١٧٤ .

(٣) وكان السلطان جقمق (ت ٨٥٧هـ/١٤٥٣م) يجل العلماء ، ويبالغ في إكرامهم ، ويرفع من مقامهم ، ويبحث معهم في مجالات علمية متباينة ، ويلازم مشايخ القراءات ، فيقرأ عليهم دقائقها بصورة منتظمة ، ويتأسف على مفارقتهم ، فقد حزن كثيرا على وفاة ابن حجر الذي كان يطلق عليه أمير المؤمنين ، فضلا عن اقتنائه لأنفس الكتب الذي كان يشتريها بأضعاف ثمنها ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج١٥ ص٤٥٩ ، وأيضا كان السلطان قايتباى (ت٩٠١هـ) وله ديوان لطيف من نظمه وإنشائه في مناقبه ومآثره سماه (الدرة المضيئة في المآثر الأشرفية) . الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٨ ص٧ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج١٥ ، ص٤٥٩ .

(٤) التقاليد ، مفردها تقليد وهو المرسوم الموقع من السلطان لتعيين شخص في وظيفة كبيرة . الفيروزابادي ، القاموس ، ص٣٩٩ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام ، ص٤٠٢ .

(٥) برز عدد من علماء اللغة كان منهم ابن منظور المصري (ت٧١١هـ) وابن منظور هو محمد بن مكرم بن علي علي ، أبوالفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الأفريقي ، الإمام اللغوي المشهور ، وفاته بمصر ، وله الكثير من المؤلفات اللغوية منها معجمه المشهور (لسان العرب) . الكتبي ، فوات الوفيات والذيل عليها ، ج٤ ص٣٩ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٤ ص٢٦٢ . ومن السلاطين من اشتهر بسعة معارفه كالمؤيد شيخ (ت٨٢٤هـ) الذي كانت له الصدارة العلمية للإقراء والتدريس حيث كان معه إجازة برواية صحيح البخاري من شيخه سراج الدين البلقيني (ت٨٠٥هـ) وقد سمع على هذا السلطان المؤرخ المشهور ابن حجر العسقلاني ومسموعاته عليه الحديث ، وترجم له في عداد مشايخه في كتابه المشهور (المعجم المؤسس) وفضلا عن معارف هذا السلطان فقد كان محبّا للعلماء كثير التعظيم لهم ويجالسهم ويجل الشرع النبوي ، لذا سمع عليه مشاهير العلماء كالبلقيني السابق الذي كان ضمن مشاهير العلماء في الحديث والفقه والأصول ، فضلا عن مصنفاته . المقريزي ، السلوك ، ج٤ ق١ ص٥٥٠ ، ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج٣ ص٢٣٧ ، ٢٥٧ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٦ ص٨٥ .

وبهذا يظهر بوضوح أن للأوقاف الدور البارز في النهضة العلمية في فترة الدراسة ، وبدونها ما توافد العلماء على الحرمين بهذه الكثرة ولا كانت الحياة العلمية على الصورة التي ارتقت إليها بالحرمين الشريفين في تلك الحقبة من التاريخ .

ب – كثرة طلبة العلم بالمدينتين المقدستين :

حث الإسلام على طلب العلم ، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة)[١] ، وروى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع)[٢] ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها فرب حامل فقه لافقه له ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[٣] .

واستجابة لحث الإسلام على العلم اجتهد الطلاب في تحصيله وقد فضل معظم الطلبة في ذلك العصر الرحلة إلى بلاد الحجاز ، لأداء فريضة الحج في مكة ، وزيارة قبر الرسول ﷺ بالمدينة ، ولطلب العلم على مشاهيرهما من أقطاب العلماء والفقهاء والقضاة ، وقد حض على هذه الرحلة كثير من المؤرخين[٤] وخاصة من تعودوا عليها وأخذوا العلم على مشاهير علماء الحرمين ،

---

(١) رواه أبوداود في السنن في كتاب العلم ، ج٤ ص٥٧ ، ورواه الترمذي في جامعه في كتاب العلم ، ج٤ ص١٣٧ ، والإمام أحمد في المسند ، ج٢ ص٢٥٢، ٣٢٥، ٤٠٧ ، وله شاهد من حديث أبي الدرداء عند أبي داود ، ج٤ ص٥٧ ، والترمذي ، ج٤ ص١٥٣ ، وابن ماجه في المقدمة ، ج١ ص٤٧ ، رقم ٢٣٦ ، والمسند ، ج٥ ص١٩٦ .

(٢) رواه أبوداود في كتاب العلم ، ج٤ ص٥٧ ، والترمذي فيه أيضا ، ج٤ ص١٥٣ ، وابن ماجه في المقدمة ، ج١ ص٤٧ ، حديث رقم ٢٣٦ ، والإمام أحمد في المسند ، ج٥ ص١٩٦ ، وهو جزء من الحديث الأول في بعض طرقه ، وله شاهد في المسند من حديث صفوان بن عسال المرادى ، ج٤ ص٢٣٩-٢٤٠ .

(٣) رواه الترمذي في كتاب العلم، ج٤ ص١٤١، والإمام أحمد في المسند، ج١ ص٤٣٧، وله شواهد من حديث أنس بن مالك في المسند ، ج٣ ، ص٢٢٥ ، ومن حديث زيد بن ثابت عند أبي داود ، ج٤ ص٦٨ ، وابن ماجه ، ج١ ص٤٩ ، والمسند ، ج٥ ص١٨٣ ، ومن حديث جبير بن مطعم في المسند ، ج٤ ص٨٠-٨٢ .

(٤) الرحلة في طلب العلم إلى أهل الحجاز هي أطيب الرحلات بل هي من أوجب الواجبات بالنسبة لطالبي العلم ويؤكد ذلك ابن خلدون بصدد رحلة طلبة العلم إلى البلاد المتبحرة في العلم فيقول : " ولابد من الرحلة في طلبه . . - أي طلب العلم - . . . فكانوا يرحلون إلى أهل الحجاز . . . والمدينة يومئذ دار العلم ، . . فكانوا إلى أهل الحجاز أميل . . " ، ابن خلدون ، مقدمته ، ٤٨١-٨٤٢ ، ٤٩٧-٤٩٨ ، وأشار ابن جبير إلى ذلك ، بل حض طلبة العلم من المغرب على الرحلة قائلاً : " . . . فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد

وقد شجعهم على ذلك أمور كان من بينها : قدسية هذه الأماكن ، ومكانة الحرمين الشريفين في قلوب المسلمين وكثرة الأوقاف التي هيأت لطلبة العلم جواً طيباً ومناخاً سليماً ليتوفروا على العلم وطلبه والاستزادة منه ونشره[١] ، ومن خلال إشارات المصادر لاسيما كتب التراجم ، نجد جمعاً كبيراً من طلبة العلم الذين سلكوا طريقه الموصل إلى الجنة ، لم يدخروا وسعاً في سبيل بلوغهم إلى هدفهم السامي ، فرحلوا إلى المدينتين المقدستين في طلب العلم .

وكثر عدد الطلاب في الحرمين الشريفين ، وفي المؤسسات العلمية في المدينتين المقدستين ، للعديد من الأسباب ، وفي مقدمتها المساعدات المادية والعينية الممثلة في الأوقاف ومساعدة السلاطين التي أدت إلى نمو الحياة العلمية ، فأقبل الطلاب على الدراسة المفتوحة الأبواب لجميع الراغبين في تحصيل العلوم على مشاهير العلماء ، وقد كفل لهم ريع الوقف استمرارهم في طلب العلم : ووجدوا في هذه المؤسسات مايكفيهم مؤونة البحث عن المسكن والمأكل والملبس وشتى أمور معايشهم ، هذا إلى جانب الجوامك الشهرية أو السنوية التي تشبه المنح الدراسية في العصر الحديث ، وأيضاً الهبات السنوية في المواسم والأعياد للتشجيع على طلب العلم[٢] .

وفي بعض الوثائق حدد الواقفون أعداد الطلبة الدارسين لأي علم من العلوم المتداولة في تلك الفترة ، وبالنسبة لدراسة الفقه على المذاهب الأربعة ، فقد حددوا طلبة كل مذهب ، فمثلاً رتبت إحدى الحجج لكل مدرس عشرة من الطلبة عدا الحنابلة التي اقتصرت منهم على خمسة واشترطت هذه الوثيقة على الطلاب أن يجلس كل منهم أمام شيخه يوميّا بالحرم النبوي الشريف وهذا

ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة . . . ". ابن جبير ، رحلته ، ص١١٩، ٢٠٠ .

(١) التجيبي ، مستفاد الرحلة والاغتراب ، ص٣٦٢ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ص٢٣١ ومابعدها ، ج٧ ص٣١٦ .

(٢) حجة وقف شاهين بن عبدالله الحسنى ، رقم الوثيقة (٦٢) دار الوثائق القومية ، وحجة وقف جمال الدين الأستادار ، رقم الوثيقة (١٠٦) محفظة (١١٧) دار الوثائق ، وحجة وقف الأمير صرغتمش ، ١٦٥ رقم (٣١٩٥) أوقاف ، نشر ودراسة : عبداللطيف إبراهيم ، ص١٦٤ ، المقريزي ، الخطط ، ج٢ ص٣٧١ ، السلوك ، ج١ ق٢ ص٩٩٩ .

الشرط كان مطبقا على طلبة العلم بالحرم المكي أيضاً ، وقد حددت الوثيقة صرف ٢٨٠ درهماً شهرياً لكل طالب من طلبة المذاهب الثلاثة ، أما طلبة الحنابلة فكان لهم ١٢٠ درهماً شهرياً ، وهي المرتبات المقرة نفسها لنظرائهم بمكة المكرمة ويلاحظ أن أعداد طلبة كل مذهب لايزيدون على عشرة ، ولايقلون عن خمسة وهم الحنابلة ، مما يدل على أن هذا المذهب كان أقل انتشاراً بخلاف المذاهب الثلاثة الأخرى التي كانت أكثر انتشاراً في تلك الفترة ، ويعضد ذلك أيضاً ضعف معلوم الحنابلة في الوثيقة عن بقية المذاهب الأخرى ، وهذا واضح أيضاً فيما يتقاضاه مدرسو المذاهب الثلاثة المتفاوتة ، فكل منهم كان يتقاضى أكثر من مدرس المذهب الحنبلي ، أما في مكة فلم تحدد الوثيقة له شيئاً[١] ، وحددت بعض الوثائق أربعة طلاب من المسلمين يشتغلون بالعلوم الشرعية على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه بحرم مكة الشريف في كل يوم من أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة وأيام الأعياد لإشغال من أراد الاشتغال بالعلم الشريف من أي علم أراد من العلوم الشرعية في الفترة مابين صلاة الظهر والعصر في أي وقت يشاءون وبأي مكان بالحرم الشريف على شيخهم ويصرف لهم مائة درهم نقرة جيدة من الفضة البيضاء في كل سنة من السنين العربية ، أو مايعادلها من النقود .

وبحرم المدينة كذلك لأربعة أنفس من المسلمين يشتغلون بالعلم الشريف على مذهب الإمام أبي حنيفة ويصرف لهم ماصرف لنظرائهم بمكة من الشافعية[٢] .

وبعض الوثائق اقتصرت على سبعة طلبة أحناف لدراسة العلم الشريف الحنفي بحرم مكة ، واشترط صاحب الوثيقة أن يكون حضورهم بين طلوع الشمس إلى الزوال يوميّا خلا يوم الجمعة والثلاثاء وأيام العطلات العادية ويصرف لهم مقابل ذلك ثمانمائة درهم نقرة وأربعين درهماً ، وعلى نظرائهم

---

(١) راشد القحطاني ، أوقاف الأشرف شعبان ، ص ٩٦.

(٢) حجة وقف شاهين بن عبدالله الحسنى ، رقم الوثيقة (٦٢) دار الوثائق القومية .

أيضاً من الأحناف بحرم المدينة مابين طلوع الشمس إلى الزوال كنظرائهم بمكة ويصرف لهم بالسوية سنويّا ما يصرف لنظرائهم بمكة[(١)] .

وهذه الشروط الخاصة بأعداد الطلاب ومذاهبهم ، قد كان لها أثر في اجتذاب الطلبة نحو دراسة مذهب معين دون آخر[(٢)] وقد حددت بعض الوثائق عشرة طلاب يحفّظون القرآن الكريم من الأيتام إضافة إلى تعليمهم الخط العربي وإتقانه على عادة أمثالهم في ذلك أى إتقاناً لتلاوته وتجويداً وتحسيناً لخطهم ، ومقابل ذلك يصرف لهم في غرة كل شهر من شهور الأهلة من الدراهم النقرة الجيدة ، أو مايقوم مقامها من النقود بقيمة الفضة المتعامل بها في مصر لكل نفر عشرة دراهم نقرة ، وتعليمهم ذلك بحرم الله الشريف بمكة المكرمة ، وقد أمنت الوثيقة كسوتهم سنويّاً بخمسين درهم نقرة فضة ، وقد اشترطت الوثيقة على معلمهم مراعاة طاقاتهم ، فيعلمهم مايطيقون من القرآن ، أو الخط العربي على عادة أهل مكة في كل يوم من أيام الأسبوع عدا أيام البطالة المعتادة ، ولنظرائهم بالمدينة كذلك على عادة أمثالهم بمكة ، وفي كل شهر من شهور الأهلة لكل منهم ثلاثون درهماً نصفها مقابل قراءتهم قصار سور القرآن مجتمعين بعد انصرافهم وقت العصر ، وبعد صلاتهم على النبي ﷺ يهدون ثواب ماقرأوا للنبي ﷺ وآله وأصحابه وعترته والتابعين ، ثم للواقف وللمسلمين[(٣)] ، وحددت بعض الوثائق عشرة طلاب من أيتام المسلمين يصرف لهم ثلاثة آلاف وستمائة درهم بواقع ثلاثمائة وستين درهماً لكل يتيم عن نفقته وكسوته ، وأدوات تعليمه ، ومن طلبة الحديث أيضاً عشرة

---

(١) وقف السيفى أيتمش بن عبدالله الظاهري ، رقم الوثيقة (١١٤٣ق) أوقاف .

(٢) ويؤكد هذا القول ماذكره المقريزي من أن الأمير يلبغا الخاصكى حدد درساً بجامع أحمد بن طولون ، ورتب فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وقرر لكل فقيه من الطلبة شهريّا أربعين درهماً وإردب قمح ، ولما كان هذا القدر يرتفع نسبيّا عماهو مقرر للمذاهب الأخرى " فانتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفية " ، حجة وقف السيف أيتمش بن عبدالله الظاهري ، رقم الوثيقة (١١٤٣ق) ، أوقاف . المقريزي ، الخطط ، ج٢ ص٢٦٨ .

(٣) حجة وقف شاهين الحسنى ، رقم الوثيقة (٦٢) دار الوثائق القومية .

مع مبالغ سخية تكفهم عن العوز والحاجة ، وهكذا يتضح أثر الأوقاف ودورها البالغ في عنايتها بالقرآن الكريم تحفيظاً وتلاوة ، وقد شملت الأيتام اجتماعيّا وعلميّا منذ نعومة أظفارهم ، وكان الواقفون يرجون ثواباً مضاعفا بتخصيصهم الصرف على ذلك في الحرمين الشريفين ، وفي بقية المنشآت التعليمية كالأربطة والمدارس ، وهذا لا يمنع الوقف على هذا الغرض في البلاد الأخرى .

ونتيجة للموارد المالية من الأوقاف التي أرست أسس المدارسة في الحرمين ، تخرج عدد من الطلاب الذين أتموا حفظ القرآن الكريم دون أن يبلغ أحدهم الخمسة عشر عاماً ، شاهدهم ابن بطوطة ومن قبله ابن جبير، وقد كانوا يجتمعون في احتفال كبير في كل وتر من العشر الأواخر من رمضان ، ويحيون هذه الليالي من خلال إمامتهم للناس في الصلاة وختمهم للقرآن ، ففي ليلة الحادي والعشرين من رمضان كان يختم أحدهم القرآن ، وكان يحضر هذا الختم الكثير من القضاة والأعيان ومشاهير العلماء ، ثم في بقية ليالي الوتر التي لا تخلو جميعها من حفظة القرآن الذين أتموا حفظه دون بلوغهم خمسة عشر عاماً ، وهذه الاحتفالات وصفت بأنها كانت بهيجة ، فلا يكاد يرى المسجد الحرام من كثرة شعاع الشمع المحدق به ، وكان هذا لتدريب الطلاب على مواجهة الناس ، فكان الطفل يقف وكأنه واعظ متمرس يلقى عظاته بعد تلاوته وختمه للقرآن وإمامته بالناس[1] ، وما كان يتم في مكة كان يحدث مثله بالمدينة في الحرم النبوي [2] ، وفي المدينة تكاثرت أعداد الطلاب

---

(١) ابن جبير ، رحلته ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، ص١١١ ، ابن بطوطة ، رحلته ، طبعة بيروت ، ١٣٩٩هـ ، ص١١٤، ١١٥، ١٣٧، ١٦٧،١٦٦ .

(٢) ذكر ابن بطوطة أن إقامته بالمدينة أربعة أيام ، ومبيته بالحرم النبوي ، والناس قد حلقوا في صحنه حلقاً ، وأوقدوا الشمع الكثير ، وبعد أن أفاض في وصف هذا الحفل ذكر أن حلقاتهم كانت تضم حفظ القرآن الكريم ، وبينهم أربعمائة لتلاوته ، ومنهم من يحفظه لغيره ، وبعضهم يذكرون الله وبعضهم في مشاهدة التربة الشريفة الطاهرة زادها الله طيباً ، والحداة بكل جانب ، وذكر أخيراً : " وهكذا دأب الناس في تلك الليالي المباركة " . ابن بطوطة ، رحلته ، ص ١٢٦ .

بشكل ملحوظ ، كان منهم ابن فرحون (ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م) مؤرخ المدينة المشهور صاحب كتاب المدينة المنورة المسمى (نصيحة المشاور وتعزية المجاور) ، وغيره [١] .

واستفاد الطلاب من مشاهير العلماء كالمحب الطبري (٦٩٤هـ / ١٢٩٤م) الذي تتلمذ عليه جمع كبير من طلبة العلم في حلقاته العلمية بحرمي مكة والمدينة[٢] ، وقد توفر الطلبة على الحلقات العلمية التي أقامها حسام الدين شيخ الحرم النبوي (ت٦٩٦هـ/١٢٩٦م) وقد ضمت حلقته أعداداً وفيرة من طلبة العلم منهم أحمد بن محمد الشهاب الصنعاني (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م) وقد اكتظت حلقته العلمية حينما كان يحدث بكتاب (المصابيح وجامع الأصول) بإسنادين له عن مؤلفيهما[٣] ، ومن الطلاب من لم يقنع بتحصيل معارفه على مشاهير علماء مركز علمي واحد بل ساح لتحصيل معارفه من الحرمين والأربطة والمدارس بل طوف في أغلب البلاد الإسلامية ، وحصل معارفه بسائر مراكزها العلمية[٤] ،

---

(١) منهم محمد بن غصن المجاور بالمدينة ، كان مقرئاً وعالماً فذا بالقراءات وشتى معارف العلوم في زمانه جود القرآن عليه خلق كثيرون وافادت معارفه الكثير من الطلبة كان من بينهم ، أخو عبدالله بن علي وكثير من الطلبة ، وفاته بالقدس سنة ٧٢٣هـ . السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ص٥٩٩- ٥٦١ برقم ٤٠٦٧ .

(٢) تتلمذ على يديه في جمادى الأولى سنة ٦٤٩هـ بالروضة الشريفة جمع كبير منهم عبيدالله المهدوى مع القطب القسطلاني ونجم الدين عبدالحميد ، وعلاء الدين العطار وشمس الدين بن مسلم ، والحافظ الدمياطي ، وعلم الدين البرزالي ، ونجم الدين الطبري ، وقطب الدين الحلبي ، وأثير الدين أبي حيان ، وكثير بالمدينة ، وبمكة تفقه عليه أعيانها كالمدينة وانتفع به الطلبة الذين نهلوا من شتى معارفه واختلاف جلساته بكل المراكز العلمية ، وهؤلاء وغيرهم بترجمة المحب الطبري . الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج٤ ص١٤٧٤ برقم ١١٦٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ص٣٤ ابن تغري بردي ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ج١ ص٣٢٤- ٣٤٨ برقم ١٨٤.

(٣) وقد أخذ عنه الكثير ، منهم : أبوعبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق وذكره في مشيخته قائلاً : " سمعت منه بقراءة الأقشهري " . انظر : ترجمة الشيخ في السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ص١٥٥ ، برقم ٣١٢ ، ص٢٢٢ برقم ٦٦٥ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص ٤٠ .

وكثرة أعداد الطلبة تبدو من خلال كتب التراجم فما من ترجمة إلا ويذكر فيها أعدادهم وجملة أنشطتهم مقروءة كانت أو مكتوبة .

وقد فضّل بعض الطلبة أن يمارس مهنة تعينه على أعباء حياته ولم يرض أن يعيش معتمداً على غيره، ومنهم محمد بن خالد الجويني[(١)] (ت في حلب ٦٨٧هـ/١٢٨٨م) الحموي الشافعي الكتبي ، وكان تاجراً في الكتب ، ولم تشغله مهنته هذه عن تحصيل معارفه[(٢)] ، ومجدالدين الشيبي ، أحمد بن ديلم بن محمد شيخ الحجبة وفاتح الكعبة (ت بمكة ٧١٢هـ/١٣١٢م) ، وعلى الرغم من عمله في الحجابة فإنه كان مكبّا على تحصيل معارفه ، ومسموعاته كثيرة شاهدة على طلبه للعلم من خلال حلقات المشهورين من العلماء[(٣)] ، وقدم إلى المدينة المنورة مع خلق كثيرين المؤرخ الحسن بن عمر بن حبيب في سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٢م) والتقى هو ومن معه من الطلبة بعدد من علمائها ، منهم الشيخ أمين بن محمد بن محمد الأندلسي[(٤)] وكثر وفود طلاب العلم إلى المدينة وشجعهم على ذلك ماقدمته لهم الأوقاف من سكن في الأربطة والمدارس إضافة إلى تأمين معاشهم بصورة منتظمة أو غير منتظمة كالمساعدات المادية والعينية التي كانوا يحصلون عليها في صورة حبوب أو دشيشة وغيرذلك مما سبق ذكره .

---

(١) الجويني : نسبة إلى جوين ، وهي كورة على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور ، وسميت على اسم بعض أمرائها ، وقيل إنها من قرى سرخس ، بها كثرة من العلماء منهم أبوالحسن علي بن يوسف الجويني ، المعروف بشيخ الحجاز . ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ص١٩٢- ١٩٣ .

(٢) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج٣ ص٣٦ برقم ٩٢١ .

(٣) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، ج١ ص٢٧٨- ٢٧٩ برقم ١٥٤ .

(٤) ابن حبيب ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ج٢ ص٢٤٣- ٢٤٤، ٢٥٧ وقد ذكر بالصفحة الأخيرة أنه توفي سنة ٧٣٤هـ ، وأفاد أنه : الشيخ الصالح الجليل الفاضل أبوالبركات أمين بن محمد بن محمد السعدي الأندلسي ، التونسي ، الذي فارق أهله إلى المدينة الشريفة وجاور بها عدة سنين قضاها في نشر معارفه وعبادته ، ومدحه للنبي ﷺ ، رآه ابن حجر بالمدينة النبوية وزاره ، وسمع من نظمه وفوائده . ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج٢ ص٢٥٧ .

وقد ذكر السخاوي الكثير من هؤلاء الطلاب منهم ابن حجر وغيره الذين قدموا إليها للأخذ عن العلماء والحصول على شهادتهم لهم ، كعبدالملك بن علي القزويني الذي التقى به في سنة (٨٦٧هـ / ١٤٦٢م)[١] .

وقد ارتحل ابن فهد إلى المدينة ومعه جمع كبير من الطلبة وتلقوا العلم على عدد كبير من شيوخها بعد أن رحلوا في طلبه إلى أقطار عديدة كالشام ومصر[٢] ، وكثرت رحلات تقي الدين الفاسي إلى سائر البلاد ومكث بالمدينة المنورة ، مرافقاً لخاله القاضي محب الدين النوري حيث سمع وقرأ على كثير من العلماء برفقة كثير ممن كانوا معه الذين اشتغلوا بفقه الإمام مالك وغيره من العلوم الدينية الأخرى ، وكانت رحلته إلى المدينة ضمن عدة رحلات إلى مختلف البلاد الإسلامية ومنها مصر والشام .

ج ـ نشر العلم في مؤسساته بالمدينتين المقدستين :

اهتم الواقفون بإنشاء المدارس والأربطة والمكاتب لإثراء الحركة العلمية ، وكثرت المدارس في مكة والمدينة وإن كان عددها في مكة أكثر ، فقد أورد الفاسي من مدارس مكة كماً هائلاً في تلك الفترة[٣] ، ومما شجع على كثرة المدارس في الحجاز نظام الوقف الذي مكن هذه المدارس من أن تؤدي رسالتها التعليمية بانتظام ، وكان يتم اختيار مدرسيها بعناية كبيرة من قبل الواقف ، واشتملت وثائق الأوقاف على تفصيلات كثيرة ، ومنها الشروط الواجب توافرها فيمن يقومون بالتدريس ومواعيد الدراسة وعدد الطلاب ومخصصات الأساتذة والطلاب ، وغير ذلك من الجزئيات ، فمدرسة

---

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ص٨٦ .

(٢) شيوخ ابن فهد في معجم شيوخه من الرجال ، ص ٣٨، ٧٨، ١١٨، ١١٩، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٨-١٩٠، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٣٢-٢٣٣، ٢٣٩، ٢٦١، ٢٦٧، ومن النساء، ص٣١٤-٣١٦، ٣٢٥ .

(٣) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٢٨ .

دار العجلة[١] كان التدريس فيها سائداً على المذهب الحنفي ، وكانت أوقافها مضافة لقاضي الحنفية في القاهرة[٢] ، وقام بالتدريس بها كثير من العلماء ، منهم : يوسف بن الحسن الحنفي الذي حدث ودرس وأفتى ، وقد ولي تدريس مدرسة أرغون بولاية من الواقف[٣] ، وقد سكن بهذه المدرسة العالم إبراهيم بن أحمد المصري[٤] ، ودرس بها أيضاً إمام الأحناف بمكة أحمد بن علي بن يوسف السجزي (ت ٧٦٣ هـ / ١٣٦١م)[٥] ، وأحمد بن محمد الصاغاني الحنفي (ت ٨٢٥ هـ / ١٤٢١م) وقد انتشرت معارفه فيها وفي المسجد الحرام أيضاً[٦] ولأن هذه المدرسة كانت مقصورة على تدريس المذهب الحنفي ، فإن الذين نشروا معارفهم فيها كانوا من الأحناف وانطبعت عليهم شروط الواقفين التي تضمنت أهليتهم لتدريس الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، وهم عارفون بأصول مذهبه ، متقنون لأدق مسائله ، فضلاً عن ديانتهم وحسن

---

(١) هذه المدرسة بناها أرغون بن عبدالله الناصري ، المعروف بالنائب ، لأنه كان نائب السلطنة في مصر ، عن أبن مولاه الناصر محمد بن قلاوون ، وتردد إلى الحج مرات ، آخرها سنة ٧٢٦ هـ ، ومن حبه للعلم بنى هذه المدرسة بمكة للحنفية سنة ٧٢٠ هـ ، وهي منسوبة إلى دار العجلة لأنها محل دار العجلة ، ووقف عليها وقفاً ، وقد ولي نيابتها بعد رجوعه من الحجاز في سنة ٧٢٠ هـ ، عند تغير ابن مولاه عليه ، وكان فصيحاً شجاعاً كريماً محباً للعلم في علمائه وطلابه ، مسموعاته كثيرة في مكة على مشاهير علمائها ، وأذن له في التدريس والفتوى ، وقد جعل مدرسها يوسف بن الحين الحنفي المكي الذي أثرى الحياة العلمية بها مدة سنين طويلة ، وفاة أرغون المذكور بحلب في ربيع الأول سنة ٧٣١ هـ . الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ١١٧ ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ١٢٨ ، ابن فهد ، اتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٣١٨ .

(٢) الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ١١٧، ج٣، ص ٢٨٣ ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٥٢٣، ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج١ ، ص ٣٥١ .

(٣) يوسف المذكور كان يلقب بالجمال بن البدر بن التاج ، مسموعاته كثيرة ، وأجيز من مشاهير العلماء ، وممن أجازه فخر الدين التورزي الذي أسمعه الملخص للفاسي ، وفضلاً عن نشاطه العلمي تدريساً وتحديثاً وإفتاءً ، فقد كانت له تصانيف في العروض والشعر ، وأناب عن عمه الشهاب الحنفي بمقام الحنفية ، وعن القاضي شهب الدين الطبري في العقود ، وفاته بمكة في صفر ٧٦١ هـ. الفاسي ، العقد الثمين ، ج٧ ، ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ برقم ٢٧٦٨ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ج٢ ، ص ٣٠٦ — ٣٠٨ .

(٤) وهو الملقب ببرهان الدين ، مسموعاته كثيرة على مشاهير علماء مكة ، وفاته بمكة في ٢٦ من رجب سنة ٧٧٩ هـ ودفن بالمعلاة . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٢٠٣ ، برقم ٦٨٤ .

(٥) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ١١١ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٢٢٣ .

(٦) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ١٦٩ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ١١٩ .

مروءتهم[(١)] .

وقد والت الحركة العليمة انتشارها في مدرسة الباسطية[(٢)] ، وتميزت هذه المدرسة بكثرة الأوقاف والأنظمة التي وفرت جواً علميا أتاح لروادها تحصيل معارفهم ، وكانت بها خلاوي للفقراء وبجانبها سبيل ، وفضلاً عن مشيختها والإشراف عليها .

فقد كان من وظائفها نظر المواريث ، وكان لأوقافها مباشر ، وتعددت شروط واقفها[(٣)] ، وقد أثرى الحياة العلمية بها كثير من العلماء ، منهم : الشيخ عمر بن محمد الشيبي[(٤)] الذي ولي التدريس فيها وولاية مشيختها من سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م إلى سنة ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠م وغيره[(٥)] .

وممن أسهم في ازدهار الحركة العلمية أحمد بن أحمد بن جوغان الواعظ

---

(١) حجة وقف أيتمش بن عبدالله الظاهري ، رقم الوثيقة (١١٤٣ ق) أوقاف ، قام بنشرها د . عدنان الحارثي في رسالته للدكتوراة وعنوانها (عمارة المدرسة في مصر والحجاز) في القرن ٩ هـ .

(٢) أنشأ هذه المدرسة خليل بن إبراهيم ، الملقب بالزيني عبدالباسط ، حج كثيراً ، ومآثره بطريق الحاج ومكة كثيرة ، وفي عام ٨٣٤ هـ اشترى الواقف دار أرغون الناصري على يسار الداخل إلى الحرم المكي من باب العجلة ، وأمر أستاداره عمر الشافعي أن يعمر مكانها مدرسة ، وفي عام ٨٣٥ هـ ابتدأت عمارتها وتمت في العام نفسه ، وبناؤها جاء في غاية الإتقان ، وشبابيكها مشرفة على الحرم ، وبها خلاوي للفقراء وبجانبها سبيل . ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٥٩ ، السيوطي ، نظم العقيان ، ص ١٢٢ ، النهروالي ، الإعلام ، ص ١٤٣ .

(٣) واقف هذه المدرسة كانت له شروط منها ما ذكره ابن فهد في ترجمة القاضي جمال الدين أبو السعادات بن ظهيرة (ت ٨٦١ هـ) حيث قال : " ولي تدريس المدرسة الباسطية بمكة أول ما أنشئت في سنة خمس وثلاثين وثمانمائة ، ثم عزل عنها في سنة سبع وثلاثين لما ولي القضاء ، لأن واقفها شرط ألا يكون مدرسها قاضياً " . ابن فهد ، الدر الكمين ، ورقة ٥٦ ب .

(٤) هو : عمر بن محمد بن علي بن محمد ، ابن أبي غانم العبدري الشيبي ، حفظ القرآن ، وتلا به على بعض القراء ، قرأ في التنبيه على الشمس البرماوي ، ولي مشيخة الباسطية المكية من واقفها في سنة ٨٤٢ هـ ، وتقلد وظائف دينية كثيرة ، وفاته الخميس ٢٦ من رجب سنة ٨٨١ هـ. السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٦ ، ص ١٢٢ برقم ٣٩١ .

(٥) كان من مدرسيها ومشيختها أحمد بن علي الشويطي، ومحمد بن محمد البخاري الحنفي، وغيرهم ، وممن سكن هذه المدرسة ، عطية بن أحمد بن جار الله. ابن فهد ، معجم الشيوخ ، ص ٦٨ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ٢٨ و ٢٩ ، ج٩ ، ص ٢٢٢ ، ج٥ ، ص ١٤٨ ، الجزيري ، درر الفوائد ، ج١ ، ص ٧٢ .

المجاور بمكة الذي ولي التدريس والمشيخة بمدرسة الزمامية(١) بولاية من واقفها خشقدم بن عبدالله الظاهري ، وابن جوغان(٢) وغيره(٣) ممن تولوا مشيخة الزمامية والتدريس فيها ، وزادوا في أنشطتهم العلمية بما وفرته لهم الأوقاف في هذه المدرسة ، فقد كان بها خلاوي يسكنها الفقراء وكان فيها صهريج(٤) يجتمع فيه الماء من سطح المسجد الحرام ، ووقف عليها خشقدم وقفاً بالمسعى يعرف بربع التوريزي ، وجعل الناظر على ذلك الشيخ شمس الدين متولي عمارة هذه المدرسة(٥) وسكن هذه المدرسة أعداد كثيرة من العلماء والصالحين(٦) .

أما المدرسة الجمالية(٧) بمكة ، فكان لها دور بارز في نشر العلوم والمعرفة ، بروادها الذين كان منهم محمد ابن أبي بكر الحسين المرغي (ت ٨٥٩ هـ / ١٤٥٤م) وهو الذي ولي مشيختها والتدريس فيها أول ما أنشئت ، وقد كثرت بهذه المدرسة الحلقات العلمية ، وألقى المراغي دروسه الفقهية والحديثية بعد صلاة الفجر لضيق وقته وانشغاله ، فقد كان يدرس بعد صلاة العصر بالمدرسة الزمامية ، واستمر في ذلك حتى وفاته(٨) .

---

(١) هذه المدرسة أنشأها خشقدم بن عبدالله الظاهري عند دار العجلة سنة ٨٣٥ هـ. السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص ١٧٥ .

(٢) ابن جوغان نزيل مكة ، ولي مشيخة الزمامية ، ومات في ربيع الآخر سنة ٨٥٠ هـ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١ ، ص ٢١٠ .

(٣) وبعد وفاة ابن جوغان تولى مشيختها والتدريس فيها عدد كبير من العلماء منهم محمد بن أبي بكر المراغي الذي جعل وقت حضور الدرس فيها بعد صلاة العصر ، وبعد وفاته جلس للتدريس بها يوم الأربعاء من كل أسبوع على ابن أيوب (ت ٨٧٨ هـ) . ابن فهد ، معجم الشيوخ ، ص ٢٢١، الدر الكمين ، ورقة ١٥٠ ب ، ١٥١ أ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص ١١٢ .

(٤) حجة وقف الزيني خشقدم ، رقم الوثيقة (٩٠) ، دار الوثائق القومية .

(٥) ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٦٤ .

(٦) منهم أحمد بن صدقة الشهاب القاهري الحنفي ، جاور بمكة سنة ٨٠٨ هـ ، وسكن بالمدرسة الزمامية . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١ ، ص ٢٣٩ .

(٧) هذه المدرسة تدعى المدرسة الجمالية اليوسفية نسبة إلى الذي أنشأها وهو ناظر الخاص ، يوسف بن عبد الكريم بن بركة (ت ٨٦٢ هـ) ، وذلك في سنة ٨٥٧ هـ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

(٨) ابن فهد ، معجم الشيوخ ، ص ٢٢١، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٧ ، ص ١٦٢ — ١٦٥ .

ثـم ولـي أوقافهـا ونظارتهـا بعـد وفاتـه برهـان الـدين بـن ظهـيرة[١] (ت ٨٩١ هـ / ١٤٨٦م) الذي جعل حضور درسه بعد العصر[٢] ، كما أسهمت منشآت قايتباي في الحركة العلمية[٣] بما ضمته من مدرسة ، واثنين وسبعين خلوة ، ومكتب للأيتام ، ومئذنة[٤] .

وقد ازدهرت الحركة العلمية بهذه المدرسة نظراً لما ضمته في أروقتها من كثرة المدرسين والطلبة وخزانة كتبها الموقوفة على طلبة العلم وكان لها خازن عينه الواقف براتب شهري ، ومرتبات الموظفين كانت تدفع ذهباً من ريع ما وقفه قايتباي بمصر[٥] .

---

(١) ابن فهد ، الدر الكمين ، ورقة ٩٥ ب ، ورقة ٩٦ أ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١ ، ص ٩٣ .

(٢) مواعيد الدراسة حددتها وثائق الوقف بدقة تامة ، حتى أصبحت تقليدا متبعا ومعمولاً به ، فكان اليوم الدراسي ممتدا ما بين طلوع الشمس إلى أذان العصر ، فكان على المدرس اختيار الوقت المناسب حسب إمكانات المكان ، أو على حسب ظروفه وذلك خلال دراسة هذه المدة على ألا يقصر في هذه الدارسة أي لا تقل فترة الدراسة الفعلية عن ثلاث ساعات ، وإحدى الوثائق أكدت ذلك ، إذ جاء من نصوصها أن " الشيخ المذكور يجلس هو وطلبته المذكورون . . . من وقت صلاة الظهر إلى أذان العصر ، أو مقدار ذلك ما بين طلوع الشمس إلى أذان العصر . . . بحيث لا يزاحمهم – بقية الدروس الأخرى – " ، وثيقة وقف جمال الدين الأستادار ، رقم الوثيقة (١٠٦) محفظة (١٧) ، دار الوثائق القومية ، ووثيقة الأمير صرغتمش ، رقم الوثيقة (٣١٩٥) أوقاف ، وهي التي حددت مواعد درس الحديث بين صلاة الظهر وصلاة العصر ، نشر ودراسة عبداللطيف إبراهيم ، ص ٢٩ ، وانظر أيضا وثيقة وقف برقوق ، رقم (٥١) محفظة (٩) مجموعة دار الوثائق التي حددت ساعات الدراسة بثلاث ساعات ونصف .

(٣) ازدهرت منشآت قايتباي بالحجاز ، فأنفق غياث الدين على مدرسته بمكة ، وتوج بقية منشآته كرباط يأوى يأوى إليه الفقراء والمساكين ، فأرسل وكيله الخواجا شمس الدين محمد ، المعروف بابن الزمن (ت ٨٩٧ هـ) ومعه سنقر الجمالي (ت ٩٠٢ هـ) ليبحثا له عن موقع مشرف على الحرم سنة ٨٨٢ هـ فاشتريا رباطين هما رباط السدرة ورباط المراغي ، ودارا للشريفة شمسية بنت حسن بن عجلان (ت ٨٨٢ هـ) وهدم الجميع وكملت المدرسة وغالب الرباط سنة ٨٨٣ هـ . ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٦١٩ ، ٦٣٩ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص ٢٧٣ ، ج١٢، ص ٦٩ ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ١٩٧ .

(٤) كانت وظيفة المدرسة في هذا العصر تعليمية ومع ذلك اتخذت لإقامة الشعائر الدينية أي أنها اتخذت مسجداً تقام فيها الصلوات المفروضة وغير المفروضة ، ويؤكد ذلك المقريزي في سنة ٧٣٠ هـ بأن " يوم الجمعة ١١ من ربيع الأول – من السنة المذكورة – رتب الأمير جمال الدين أقوش – المعروف بنائب الكرك – جمال الدين الغزاوي خطيباً بإيوان الشافعية من هذه المدرسة – أي الصالحية - ، ووقف عليه وعلى مؤذنين وقفاً جارياً ، فاستمرت الخطبة هناك إلى – يوم المقريزي – " ، مما يؤكد أن المدرسة كانت محلاً للدراسة والعبادة ، وكذلك كان المسجد في بلاد الحجاز ومصر وغيرهما . المقريزي ، الخطط ، ج٢ ، ص ٣٧٤ .

(٥) حجة وقف السلطان قايتباي رقم الوثيقة (٨٩٠ج) أوقاف ، وعلى الرغم من كثرة المدارس في تلك الفترة فإنه لم توجد سياسة تعليمية في بلاد الحجاز أو مصر ، فالدوافع السياسية كانت الأساس لإنشائها ، وهنا يظهر دور الأوقاف وأهميتها بالنسبة للتعليم في المدارس ، أو المكاتب ، التي عرفت في تلك الفترة بكتاب

وقام مدرسو هذه المدرسة بتدريس الفقه على المذاهب الأربعة لأربعين طالباً حسب شروط الواقف ، ومن الذين تولوا التدريس بها بولاية من الواقف : أبو القاسم الصاغاتي (ت ٨٨٥ هـ / ١٤٨١م)[١] ، والبرهان بن ظهيرة[٢] ، أما عن الأطفال المخصصين للكتاب ، فقد اختلفت المصادر حول تحديد أعدادهم ، فذكر البعض أنهم عشرة أيتام[٣] وحددهم البعض بأربعين[٤] ، وقد يكونون عشرة ثم زادوا إلى أربعين ، خاصة أن قايتباي عاش كثيراً بعد وقفه ، فالمدة بين وقفه لهذه المدرسة ووفاته تزيد على سبعة عشر عاماً لأنه توفي سنة (٩٠١ هـ / ١٤٩٥م) وقرر الأشراف قايتباي شيخاً لرباط مدرسته وهو شمس الدين المسيري[٥] ، ومؤدباً للأيتام ، علاوة على ستة قراء للقرآن ، وقارئ للحديث الشريف ، وخدم ، وغير هؤلاء مما تحتاج إليه المدرسة من وظائف[٦] .

واشترط قايتباي ألا يسكن بمدرسته ورباطها أحد من فقراء العجم ، وأن تظل مقصورة على فقراء العرب وساكني مكة المكرمة ، ووقف عليها ما

السبيل ، فالأوقاف هي التي ثبتت أركان المدرسة ودعمت نظامها ، ومكنتها من أداء رسالتها في هذا العصر ، وكان الريع الذي تغله الأعيان الموقوفة على المدرسة شهرياً أو سنوياً نقداً أو عيناً هو ضمان استمرار العمل بهذه المدرسة أو تلك ، لأنها كانت توفر على الطالب أو المدرس العناء والبحث عن قوت يومه وحسب شرط الواقف فقد وفرت له مطالبه وتفرغ لتحصيل علمه .

Ibrahim Salama: op. cit. p. 67.

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١ ، ص ١٣٨ .

(٢) هو : القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن ظهيرة القرشي ، عالم الحجاز وقاضيها ، تصدر للتدريس والتحديث والإفتاء ، وولي وظائف كثيرة ، فضلاً عن كثرة مصنفاته ، وفاته سنة ٩٠١ هـ. السخاوي ، ج١ ، ص ٨٨ .

(٣) ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٦٤٨ .

(٤) النهروالي ، الإعلام ، ص ١٠٤ ، العصامي ، سمط النجوم ، ج٤ ، ص ٤٤ .

(٥) شمس الدين محمد بن أحمد المسيري ، القاهري ، جاور بمكة واستقر بها ، وفاته سنة ٨٨٥ هـ. السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٦ ، ص ٢٨٩ .

(٦) ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٦٤٨ .

يكفيها من نفقات منها رباع ودور بمكة[١] .

وأسهمت المدينة المنورة بنصيب وافر في الحركة العلمية من خلال ما أنشئ بها من المدارس ، كالمدرسة الباسطية[٢] التي كان من روادها الشيخ علي بن إبراهيم بن محمد الحسيني العجمي الشافعي المكتب (ت ٨٦٢هـ / ١٤٥٧م)[٣] ، وهو الذي قرره منشئ هذه المدرسة في مشيختها وأفاد جمعاً من الطلبة في سائر العلوم ، منهم من جود الخط على يديه كعبدالله بن إبراهيم الخجندي[٤] المدني (ت ٨٦٣ هـ / ١٤٩٢م)[٥] ، وقرأ على يديه كثيرا من الكتب ، وولي مشيختها مشيختها وتدريس العلوم بها من بعد على المذكور إبراهيم بن محمد بن عبدالرحمن المدني ، المعروف بابن صالح[٦] ، وسكن بهذه المدرسة السخاوي

---

(١) الطبري ، الأرج المسكي ، ص ٧٠ ، وقد ذكر النهروالي (ت ٩٨٨ هـ) أن المدرسة في عصره أصبحت سكناً لأمراء الحج ، وأن أوقافها صارت مأكلة للنظار . النهروالي ، الإعلام ، ص ٢٢٦ .

(٢) المدرسة الباسطية أنشأها الزيني عبدالباسط في سنة ٨٤٠ هـ ، حيث قام بشراء دار مطيع التي كانت بيد أويس بن سعد بن أبي السرح ، وهدمها وأقام عليها مدرسة ، كانت قائمة في مواجهة المدرسة الأشرفية التي بناها فيما بعد السلطان الأشرف قايتباي ، السليمان ، العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٢٢٩ ، وأشار السمهودي إليها بقوله : " . . . المدرسة الباسطية التي أنشأها القاضي عبدالباسط سنة بضع وأربعين وثمانمائة . . . ". السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ / ص ٧٢٢ .

(٣) هو : علي بن إبراهيم بن محمد الزيني الحسيني العجمي ، الشيرازي ، الشفعي المكتب ، شيخ الباسطية بالمدينة النبوية ، ويدعى بضياء ، ولد في حدود سنة ٧٨٥ هـ ، ومسموعاته كثيرة في علوم القرآن والنحو والصرف ، وأخذ الفقه عن يوسف الحلاج ، جاور بالمدينة في حدود ٨٤٠ هـ ، وقرره الزيني عبدالباسط في مشيخة مدرسته بها ، بل لم يبنها فيما قيل إلا له ، وتصدى فيها لإقراء العلوم والتكتيب ، والتكرم على أهلها ، والواردين إليها ، مع لسان فصيح وقدرة على التعبير ، ووصفه بعض نظرائه بأنه جوهرة بين الفضل ، ولم يختلف على تقدمه في العلم والصلاح من أهل المدينة اثنان ، وفاته بالمدينة قبل سنة ٨٦٠ هـ ، وقيل ٨٦٢ هـ ، ودفن بالبقيع . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص ١٥٨ برقم ٥٤٧ ، التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص ٢١٠ .

(٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص ٢ .

(٥) السخاوي ، الخفة اللطيفة ، ج١ ، ص ١٢٢ — ١٢٣ ، برقم ٥٩ ، وفيها ذكر أنه قرأ على السيد علي شيخ الباسطية المدنية سنة ٨٥٥ هـ صحيح البخاري وغيره ، بل لازمه في قراءة المطول والكافية وشرحها ، والمتوسط ، وقرأ على غيره ، وفاته سنة ٨٩٨ هـ .

(٦) ذكره السخاوي أن ولادته بالمدينة سنة ٨٢٩ هـ ، وحفظ القرآن ، والأربعين والمنهاج كلاهما للنووي ودرس كثيراً من الكتب في الحديث واللغة العربية على مشاهير علماء مكة والمدينة والقاهرة ، وأثرى الحياة العلمية بالمدينة حين استقر في مشيخة الباسطية بها بعد السيد علي ، وباشر إمامة التراويح في المسجد النبوي ثم الخطابة ، وسمع السخاوي خطابته ، وسمع على السخاوي بالقاهرة والمدينة ، وكان حياً

المؤرخ المشهور[١] ، ولم تتوافر أي معلومات عن أوقاف هذه المدرسة ، والتي قد تكون بمصر كما هو الحال بالنسبة لباسطية مكة المكرمة ، لكن دروسها كانت مخصصة لتدريس المذهب الشافعي حيث وليها علماء من الشافعية واشتهرت بتدريس الخط ، لأن واقفها جعلها بيد عالم معروف بالمكتب .

ولا يمكن إغفال دور منشآت السلطان قايتباي ، في خدمة العلماء وطلبة العلم ، يساعدهم على ذلك ما أرسله هذا السلطان من خزانة كتب كبيرة جعل مقرها المدرسة ووقفها على الطلبة ، إضافة إلى جملة من المصاحف، ولاستمرار هذه المدرسة في أداء رسالتها وقف عليها عدة قرى في مصر تحمل غلاتها إلى روادها من الطلبة والعلماء والمجاورين ، ولاستقرار نظامها ، كان بها مشرفان[٢] ، وقد جعل من مشرفيها السمهودي المؤرخ المشهور ، الذي أشرف على نظارتها وما بها من الكتب ، وذلك بوساطة من البدي أبي التقا[٣] ، ويظهر من هذه المنشآت أن هذا السلطان أراد من إلحاق المكتب بالمدرسة أن يواصل الطالب تعليمه بعد تخرجه من الكتاب[٤] الذي تعود فيه حسن الانضباط في تعليمه وتنظيم وقت .

وللأوقاف دورها في تعليم الأيتام ، فبالإضافة على مكتب السبيل الذي ألحقه السلطان قايتباي بمدرسة بمكة ، والذي سبقت الإشارة إليه ، جاء في وثيقة وقف شاهين بت عبدالله الحسني أنه أقر بالصرف من ريع وقفه على عشرة من الأيتام يتعلمون القرآن الكريم والخط العربي على عادة أمثالهم أي تعليماً

سنة ٨٩٧ هـ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١ ، ص ١٤٨ – ١٤٩ ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ برقم ١١٨ .

(١) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٥٠ .

(٢) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٦٤ ، السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٤٢ – ٦٤٣ .

(٣) هو : أبو بكر بن عبدالله بن محمد بن أحمد ، الدمشقي ، القاهري الشافعي ، ويعرف بابن البدري ، ويكنى بأبي التقا ، وجاور بالمدينتين المقدستين ، وفاته بغزة سنة ٨٩٤ هـ ، ومن مصنفاته " غرر الصباح في وصف الوجوه الصباح " و " نوهة الأنام في محاسن الشام " وغيرهما . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١١ ، ص ٤١ – ٤٢ .

(٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٦ ، ص ٢٠٧ ، السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٤٣ .

جيداً ، ويصرف لكل منهم في أول كل شهر من شهور الأهلة عشرة دراهم فضة بيضاء مقابل تعليمهم ما ذكر بالحرم الشريف المكي ، فضلاً عن خمسين درهماً على الوصف المذكور سنوياً لكسوة الأيتام العشرة ، واشترط الواقف على معلمهم أو مؤدبهم أن يكون خيراً ، ديناً ، متصفاً بالصلاح والأمانة والعفة ، حافظاً لكتاب الله العزيز ، متقناً لأحكامه ، محرراً ألفاظه ، وأن يكون من أهل الفصاحة والأناة والحلم ، عارفاً بتعليم القرآن ، على أن يقرئ الأيتام ما يطيقون تعلمه من القرآن أو الخط العربي ، في كل يوم من أيام الأسبوع خلا أيام البطالة المعتادة في مكة والمدينة ، وهذه الشروط على أمثالهم ونظرائهم بالمدينة لكن يصرف للمؤدب والأيتام ثلاثون درهماً نقرة في كل شهر من شهور الأهلة ، نصفها خمسة عشر درهماً نقرة مقابل اجتماعهم عند انصرافهم وقت العصر ، ويقرأون سورة الإخلاص ، والمعوذتين ، وفاتحة الكتاب ، وافتتاح سورة البقرة ، وآية الكرسي وخواتيمها ، ويصلون على النبي ﷺ ، والترضي عن الصحابة .

وقد أسهمت الأربطة في نمو الحركة العلمية إذ لم تكن مأوى لساكنيها بالمدينتين المقدستين فحسب ، ولم تقتصر على الفقراء والمساكين الذي قصدوها بغية تحصيل أقواتهم فقط ، بل أرتادها العلماء الذي عقدوا في جنباتها الحلقات العلمية ، ونشروا معارفهم فيها وعظاً وإرشاداً وتحديثاً وتدريساً ، وحشر على أيديهم جمهرة كبيرة من الطلبة استفادوا في شتى معارفهم وحصلوا على إجازات علمية ، وأصبحوا في مصاف علمائهم يدرسون ويفتون في المسائل ويناقشون ، ويقيمون الحلقات العلمية ، ويقومون بالتأليف والتصنيف .

وقد أشار المؤرخون إلى ما وفرته الأربطة لطلاب العلم والوافدين والفقهاء والمجاورين في مكة والمدينة مما كان لهم دور كبير في النهضة العلمية ، وشجعهم على ذلك أمور كثيرة منها : قرب الأربطة من الحرمين الشريفين ، وإدارتها التي كانت في يد أحد ساكنيها من العلماء ممكن يطلق عليهم شيخ

الرباط[١] ، إضافة على شيخ يتولى النظر في الأربطة كلها ويتفقدها كعز الدين يوسف بن الحسن الزرندي الذي تولى مشيخة الربط بالمدينة المنورة ، وتولى تعمير رباط الأصفهاني[٢] ، فضلاً عن الإدارة العليا لهذه الأربطة التي كانت بيد قاضي الحرمين الذي كان من اختصاصه نظر الأوقاف والربط[٣] ، وعلى أساس ذلك كله الموارد المالية .

وامتلأت منشآت الباسطية الاجتماعية والتعليمية بالعلماء والطلاب ، وازدهرت بها الحلقات العلمية ، وممن أثرى العلم بها قاضي القضاة[٤]

---

(١) ابن تغري بردي ، الدليل الشافي ، ج٢ ، ص ٧٠٨ .

(٢) ذكر ابن فرحون أن برباط الأصفهاني جماعة أولهم وأولاهم بالذكر الحبر الكبير والسيد الشهير ذو العلوم المتعددة عز الدين يوسف ابن الحسن الزرندي ، المحدث ، سكن رباط الأصفهاني ، فعمره ، ورده على أهله على شرط الواقف بعد أن كان منزلاً للنساء ، وكان شيخ الربط كلها يتفقدها ويعمرها ، سكن في حجرة الرباط ، فما كان يعرف الرباط إلا به ، وكان يقرئ به وبالروضة الشريفة (البخاري) ، فيختمه في كل جمعة ، وقيل إنه ختمه في ثلاثة أيام ، لأنه صار على قلبه وطرف لسانه يؤديه بفصاحة ومعرفة لا يمل سامعه قراءته ، ومن غاب أعاد له ما فاته . ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٣) وممن تولى ذلك محمد بن أحمد بن محمد . . . القرشي العقيلي ، قاضي مكة وخطيبها ، عز الدين أبو المغافر بن قاضي الحرمين وخطيبهما محب الدين أبي البركات بن قاضي مكة كمال الدين أبي الفضل النويري ، المكي الشافعي ، ولادته بالمدينة المنورة في رمضان سنة ٧٧٥ هـ ، وبها نشأ ، مسموعاته وإسماعاته بالمدينة ومكة وغيرهما لا حصر لها وكما سمع من الرجال فقد سمع من النساء كأم الحسن بنت الفقيه أحمد بن قاسم الحرازي وأجيز من بلاد كثيرة ، فضلاً عن مكة والمدينة ، فقد أجازه برهان الدين الأنباسي في سنة ٨٠١ هـ لما قدم من مصر إلى مكة ، وقرأ عليه في الحاوي ، وأجازه بالتدريس والإفتاء ، ناب لأبيه في الخطابة سنة ٧٩٦ هـ وما بعدها ، وناب عنه في الحكم سنة ٧٩٧ هـ وفي درس بشير ، وباشر جميع وظائف أبيه إثر وفاته ، لأن أباه استنجز له توقيعاً من الملك الظاهر بأن يكون نائباً عنه في حياته مستقلاً بعد وفاته ، وقد ولاه السلطان الظاهر بمضر قضاء مكة وخطبتها وحسبتها ، ونظر المسجد الحرام والأوقاف والربط في أثناء شهر رمضان سنة ٨٠٦ هـ ، وقد أثرى الحياة العلمية ، فدرس بالمدرسة الأفضلية بمكة ودرس بشير وانتشرت معارفه بالمدينة وغيرها ، وفاته بمكة ليلة الأحد ٢١ من ربيع الأول سنة ٨٢٠ هـ. الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ٣٧٢ — ٣٧٦ برقم ٤٧ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ص ٤٠٦ .

(٤) وجدت وظيفة قاضي القضاة أيام الفاطميين في عهد العزيز ثاني خلفائهم في مصر ، وقبلهم كان تابعاً لبغداد ، وتعيينه في أيام الفاطميين من الشيعة الإسماعيلية ، نسبة على إسماعيل بن جعفر الصادق ، وفي عهد الوزير أحمد بن الأفضل عين لكل مذهب قاضي قضاة ، فكان في منصب : قاضي القضاة ، أربعة : احدهم شافعي ، وآخر مالكي ، وثالث إسماعيلي ، ورابع من الإمامية ولما ولي صلاح الدين الأيوبي الوزارة للعاضد اكتفى بقاضي قضاة شافعي واحد ، وظل ذلك إلى عصر المماليك ، وفي عهد السلطان بيبرس البندقداري عين في هذا المنصب أربعة لأصحاب المذاهب السنية ، وكل منهم كان مستقلاً عن الآخر ، وكان يعين على

جلال الدين أبو السعادات محمد بن محمد المكي الشافعي[١] ، الذي قام بالتدريس فيها منذ إنشائها[٢] سنة ٨٣٥هـ / ١٤٣١م واستمر في عطائه ما يربو على عامين ، ومعه بعض أئمة المسجد الحرام مثل الشمس البخاري[٣] ، والقاضي أبو اليمن النويري أحد القضاة الأربعة بمكة ، المشهور بعلمه الفياض ، وسماعاته الكثيرة ، وقد أجيز من الكثيرين ، ونشر علمه على طلاب هذا الرباط ، وناب في الخطابة عن الخطيب أبي الفضل النويري ، ثم عن ولده أبي القاسم ، ثم شاركه فيها ،ثم جمعت له ، وولي قضاء مكة وجدة، ونظر المسجد الحرام ، ومشيخة هذا الرباط ونظارته ، وكثر تحديثه بمكة وسائر البلاد كالقاهرة ، وسمع منه الفضلاء ، وأجاز له السخاوي المؤرخ المشهور ، ونشاطه في الحديث وتدريسه كثير ، وأسهم من خلال وظائفه في أكثر من علم[٤] ، وهناك كثيرون علموا وتعلموا في هذا الرباط[١] .

هذا المنصب للحنابلة في مصر ، فإنه لم يكن له أتباع بها وإنما كان نفوذه في العراق ، وبسقوط الخلافة فيها قضي عليه وانتقل إلى مصر ، وفي سنة ٦٦٣ هـ كان الأمر بتعيين أربعة قضاة يمثلون المذاهب السنية الأربعة . ابن خلدون ، مقدمته ، ص ٢٢٢ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٣٦ ، ٤١ ، البقلي ، التعريفات بمصطلح صبح الأعشى ، ص ٢١٦ .

(١) أبو السعادات المذكور أثرى الحياة العلمية من خلال وظائفه التي أسندت إليه مثل نظر المسجد الحرام والخطابة والقضاء ، وإشرافه على الأيتام والربط ، وتولى التدريس في أغلب الربط والمدارس بمكة ، وفاته ٨٦١هـ . ابن فهد ، الدر الكمين ، ورقة ٥٥ .

(٢) منشآت الباسطية التي تتضمن الرباط منسوبة على واقفها الزيني عبدالباسط بن خليل بن إبراهيم ، وأصل موقعه بدار تعرف بدار العجلة ، استولى عليها أولاد راجح بن أبي نمي ، ثم باعوها على الواقف سنة ٨٣٤ هـ ، واختلف في وظيفة هذه المنشآت ، منهم من وصفها بالمدرسة وآخر بأنها رباط ، ومنهم من وصفها بغير ذلك ، لكنها على أي حال كانت لها مهام اجتماعية وعلمية . السخاوي ، التبر المسبوك ، ص ٢٣١ ، دحلان ، خلاصة الكلام ، ص ٨٥ .

(٣) هو : الإمام شمس الدين محمد بن محمد بن شرف الدين بن علي البخاري ، (ت ٨٩٥ هـ) وقد حصل معارفه من بلده بخارى وعلى مشاهير بمختلف البلاد الإسلامية كمصر ومكة والمدينة ، جاور بمكة سنة ٨٥٦ هـ ، وتولى إمامة المقام الحنفي سنة ٨٦٧ هـ ، ودرس بهذا الرباط وبمقام الحنفية وغيرهما . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٩ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ برقم ٥٤٣ .

(٤) هو : أبو اليمن محمد بن محمد بن علي بن احمد النويري ، ولد بمكة سنة ٧٩٣ هـ ، ونشأ بها ، حفظ القرآن وجوده ، وتفقه في فقه المالكية ، ثم تحول شافعياً ، وحضر دروس مشاهير العلماء كالجمال بن ظهيرة ، والشمس البرماوي ، واعتنى به أخوه لأمه التقي الفاسي ، وأجاز له خلق كثير منهم البلقيني ، والتنوخي ،

ومن الأربطة التي أسهمت في الحركة العلمية رباط الزمامية المنسوب إلى خشقدم زمام الآدر الشريفة[٢] ، ورباطه كما ذكر في وثيقة وقفه مطل على المسجد الحرام والكعبة المعظمة ، وقد جعلت حجة الوقف لسيدنا الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد أن يقرر شيخاً من أهل العلم والدين ، وأن يرتب معه عشرة من الطلبة الغرباء ، ليجلسوا حوله بعد صلاة العصر ، ويفرق خادم الربعة على القارئين الربعات ليقرأوا في ربعاتهم المذكورة جزءاً من القرآن وهو حزبان ، وبعد قراءتهم يقرأ ثلاثة فيهم سورة الإخلاص والمعوذتين والفاتحة ، وآخر سورة البقرة ، ويذكرون الله تعالى بعد ذلك ويصلون على النبي ﷺ ، ثم يبدأ أحدهم بالدعاء ، مهدياً ثواب ما قرأوا في صحيفة الواقف ، ومن بعده لأموات المسلمين ثم ينصرفون إلى مقر سكنهم بالرباط ، ويكررون ذلك يومياً ، عدا أيام الأعياد ، ومقابل ذلك يقرر لهذا الشيخ أربعة عشر من الذهب أفلوريان ونصف[٣] ، وقد أسندت الوثيقة إلى الشيخ الوكيل أن يقرر إماماً مجيداً لقراءة القرآن يصلي بهم التراويح في كل سنة ، ومكبراً ، ومقابل ذلك فقد حددت للإمام أفلورياً وثلثاً في كل شهر رمضان ، وللمكبر نصف ما للإمام أي ثلثا أفلوري[٤] ، وكان بهذا الرباط عدد كبير من واد الحركة العلمية منهم الشيخ

وابن الملقن وغيرهم . ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ج٨ ، ص ٤٤٧ ، ابن فهد ، معجم الشيوخ ، ص ٢٦٩ ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ١٣٠.

(١) منهج الشيخ سراج الدين عمر بن أبي راجح محمد بن علي الشيبي ، والإمام الشيخ أحمد بن محمد بن محمد . ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٦٠٨ السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٦ ، ص ١٢١ ، برقم ٣٩١ ، ج٢ ، ص١٧٩ .

(٢) هذا الرباط وقفه الزيني خشقدم الزمام الظاهري برقوق (ت ٨٣٩ هـ / ١٤٣٥ م) ، ومآثره كثيرة وحسنة ، وتاريخ وقف رباطه لم تحدده المصادر ، وقد ذكره ابن فهد في قوله : " أول ما أنشئ . . . في سنة . . . وثلاثين وثمانمائة . . . " ، مما يشير إلى أنه أنشئ قبل وفاة الواقف ، وحجة وقفه مؤرخة في ٤ من ذي الحجة سنة ٨٣٧هـ .

(٣) حجة وقف الزيني خشقدم زمام الآدر الشريفة ، رقم الوثيقة (٩٠) ، دار الوثائق القومية ، سطر ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) حجة وقف الزيني خشقدم زمام الآدر الشريفة ، رقم الوثيقة (٩٠) ، دار الوثائق القومية ، سطر ٤٤ ، ٤٥ ، وهذا الرباط وقف عليه الواقف وقفاً جليلاً ، وهو الربع الذي بالمسعى ، ويعرف بربع التوريزي ، وعرف بذلك

محمد بن أبي بكر بن الحسين ، المصري المدني (٧٧٥ – ٨٥٩ هـ / ١٣٧٣ – ١٤٥٤م) الذي انتشرت معارفه تدريساً وتحديثاً في مكة والمدينة المنورة ، وخارجهما على سائر البلاد الإسلامية بالإضافة إلى ولايته مشيخة هذا الرباط ورعايته[١] .

وقد أثرى الحياة العلمية في رباط ابن الزمن عدد كبير من رواد هذه الحركة ، منهم الشيخ الفقيه نور الدين علي بن محمد ، الشافعي الذي أقرأ الفقه به ، وأذن له بالفتيا والتدريس[٢] .

وقد أسهم رباط قايتباي[٣] في زيادة النشاط العلمي من خلال كثرة رواده ، وساعد على ذلك كثرة أوقافه من خبز ودشيشة تصرف يومياً ، وقمح يأتي سنوياً ، ذا وجد قاصدو الرباط كل مطالبهم فتوفروا على العلم تحصيلاً وتدريساً ، ممن تولى التدريس بهذا الرباط إسماعيل بن أبي يزيد بن الشيخ جمال الدين التوريزي الأصل اليماني ، ثم المكي الشافعي ، أقرأ بالأشرفية بمكة كثيراً من الطلبة ، ودرس للطلبة الفقه والعربية وغير ذلك[٤] .

وأسهمت أربطة المدينة في نشر الحركة العلمية ، فقد تلقى فيها طلبة العلم المواد المختلفة على أشهر العلماء النابغين ، فمن تلك الأربطة رباط دكالة ،

لولايته على عمارته ، وجعل الناظر على ذلك الشيخ شمس الدين عمر الشامي ، حجة وقف الزيني خشقدم زمام الأدر الشريفة ، وثيقة رقم (٩٠) ، دار الوثائق القومية . ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٤ ، ص ٦٤ .

(١) ابن فهد ، معجم الشيوخ ، ص ٢٢٠ – ٢٢٢ ، الشوكاني ، البدر الطالع ، ج٢ ، ص ١٤٦ – ١٤٧ .

(٢) علي بن محمد بن عيسى بن عمر بن عطيف نور الدين العدني اليماني الشافعي ، نزيل مكة ، ولادته سنة ٨١٢ هـ بالسلامية (السلامية من كبرى قرى الموصل بالعراق ، يكثر بها البساتين) ، الحموي ، البلدان ، ج٣ ، ص ٢٦٥) ، مسموعاته وقراءاته كثيرة في سائر البلاد ، قطن مكة دهراً ، ومكث بالمدينة الشريفة ، وأخيراً استقر بمكة ، فتصدى لإقراء الفقه بها وسائر منشآتها العلمية ، وتصدر أيضاً للفتيا ، واستقر ناشراً علمه في الزمامية وغيرها ، وتركها بعد تباينه مع شيخها البرهان ، وفاته في جمادى الأولى سنة ٨٨٦ هـ . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٦ ، ص ١٣٦ .

(٣) هذا الرباط لا نظير له ، واكتمل بناؤه ضمن منشآت قايتباي سنة ٨٨٣ هـ . ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٣٢٩ ، السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٧١٦ ، النهروالي ، الإعلام ، ص ٣٣٦ .

(٤) وهو المعروف بابن بنت غناء ، لازم الفخر أبا بكر بن ظهيرة ، وكان هو القارئ عليه في دروسه غالباً ، ثم قرأ على ابن أخيه الجمال أبي السعود ، بل على أبيه من قبله برباط الأشرفية المكية وغيرها ، ودرس للطلبة الفقه والعربية وغيرهما ، وصف بأنه كان عالماً متواضعاً ، لين الجانب . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ٣٠٩ برقم ٩٦٤ .

ويقال له رباط المغاربة[١] ، وسكنه كثير من طلبة العلم وأشهر العلماء والصالحين وممن سكن بهذا الرباط عبدالواحد الجزولي (ت ٧١٧ هـ / ١٣١٧م) وقد اشتهر بغزارة علمه في الحديث والقراءات ، وكان مكباً على مدارسة العلم ونسخ الكتب بهذا الرباط[٢] .

وكان بهذا الرباط أيضاً سعد الله بن عمر بن محمد الشافعي ، المجاور بالمدينة الشريفة ، وقد أثرى الحياة العلمية بتدريسه فيه ، وممن حضروا عليه وقرؤوا على يديه النور علي بن محمد بن مرسي المحلي في جمادى الآخرة سنة ٧٨١هـ / ١٣٧٩م كتاب (الشفا)[٣] .

ومن الأربطة التي سكنها رواد المعرفة من طلبة العلم والعلماء : رباط الأصفهاني ، وممن سكنه حين حضر إلى المدينة يوسف بن الحسن الزرندي ، وأثنى عليه ابن فرحون كثيراً لعلمه وسعة خلقه وحبه للخير حيث قال : " وكان برباط الأصفهاني جماعة أولهم وأولاهم بالذكر ، الحبر الكبير والسيد الشهير ، ذو العلوم المتعددة والمقامات الربانية . . . عز الدين يوسف بن الحسن الزرندي المحدث "[٤] .

---

(١) ذكر السخاوي أن رباط دكالة يقال له رباط المغاربة ، ويعرف بسيدنا عثمان ، أو بدار عثمان بن عفان ، وقام بتجديده وعمارته محمد ابن عبدالله بن زكريا (ت ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م) . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص٥٢ ، السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ٦٥ ، الضوء اللامع ، ج٨ ، ص ٨٨ .

(٢) ذكر ابن فرحون أن الشيخ عبدالواحد الجزولي كان من العلماء المشهورين بالمدينة ، ومجاوراً في رباطه ، مكباً على نسخ العلم ، عالماً بالحديث والقراءات وغيرها ، له كتب كثيرة بخطه وقفها كلها ، وأثرى الحياة العلمية كثيراً ، وكان متصدياً للمنكر ، " إذا رأى منكراً غيره بيده ولسانه " . ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ٦٧ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٨ ، ص ٨٨ .

(٣) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ١٢٢- ٢٢٣ .

(٤) وفضلاً عن تحديثه ونشره العلم بين أهله ، فقد عمر هذا الرباط ورده على أهله على شرط واقفه ، وكان شيخاً للربط كلها ، وما كان يعرف الرباط إلا به ، ولزم قراءة البخاري في الروضة المشرفة ، وكان يختمه كل جمعة ، وقيل في ثلاثة أيام ، لأنه صار على قلبه وطرف لسانه يؤديه على طلابه بكل فصاحة ومعرفة ، لا يمل سامعه قراءته ، ومن غاب أعاد له ما فاته ، ذكرت وفاته من خلال ترجمته بأنه توفي (بطريق العراق ذاهباً في سنة ٧١٢ هـ) . ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

وازدهرت الحركة العلمية برباط الشيرازي ، وسكنه مشاهير العلماء والصالحين ، ومنهم أبو بكر الشيرازي(١) .

وكان رباط قايتباي بالمدينة ، معداً لسكن طلبة العلم وكان ضمن منشآته ، وربطه بالمدرسة ليسكن به طلبة العلم(٢) .

وعندما يصل الطالب إلى الدرجة التي يصبح فيها أهلاً لحمل أمانة نشر العلم وإذاعته بين طالبيه ، مشاركة مع شيوخه ، جرت العادة أن يحظى في نهاية دراسته بإجازة ، وهي شهادة علمية تمنح له من قبل شيخه الذي درس عليه في نهاية دراسته لأحد الكتب ، أو في إنهاء موضوع معين ، وحتى ينال الطالب هذه الإجازة لا بد له من شيخ يقرأ عليه ما يريد ، لأن قراءته مع نفسه لا تكفي ، ولا توصل صاحبها لأن يكون في مصاف العلماء ، ويشترط لصحة هذه الإجازات ، أن يكون المجيز عالماً بما يجيز به ، وثقة في دينه وروايته ، وأن يكون معروفاً بالعلم ، وأن يكون المستجيز من أهل العلم أيضاً حتى لا يوضع العلم في غير أهله ، وممن أجيزوا أو أجازوا علي بن يعلى بن علي المعروف بالسختيلي (ت ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م) الذي أجاز للقطب القسطلاني ، وولده أمين الدين(٣) ، وأجاز له أيضاً الحافظ أبو الفتح الحضري إمام الحنابلة بالحرم الشريف(٤) ، وما من ترجمة لعالم من العلماء إلا يذكر فيها أعداد من أجازوا له ، ومن أجاز هو لهم ، وقد قدم الفاسي صورة من هذه الإجازة في ترجمته لنفسه حيث ذكر أن هفي سنة ٨١٢هـ / ١٤٠٩م ، زار المدينة وحضر بها مجلس الإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد الوانوغي في الأصول والفقه والحديث والتاريخ وغير ذلك مما كان سائداً تدريسه في هذا العصر ، وأذن له شيخه

(١) أبو بكر الشيرازي ، توفي سنة ٧٣١ هـ. ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ١١١ ، وسكن رباط التستري بعض العلماء والطلبة منهم الشيخ محمد الكازروني ، وعمر الكازروني ، والفيروزآبادي ، وهذا الرباط بالقرب من المسجد الشريف ويعرف بعش الصالحين ، وبه جمع من العلماء الذين ذكروا . ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ١١٢ .

(٢) السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٤٢ – ٦٤٣ ، إبراهيم رفعت ، مرآة الحرمين ، ج١ ، ص ٧١٤ – ٧١٦ .

(٣) أحمد شلبي ، الحضارة الإسلامية ، ج٥ ، ص ٢٦٧ .

(٤) الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ٣٢١ .

الوانوغي المذكور في الإفتاء والتدريس ، وكتب له بخطه بمنى في أيامها من سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م ، ومما كتبه الوانوغي في إجازته للمذكور " . . . كان ممن اجتمعت به وذاكرته وباحثته مراراً عديدة في مسائل كثيرة من مسائل الفقه وغوامضه ، وما يتعلق بها ، وتكررت أسئلته عن ذلك كله ومباحثه فيها مرة بعد أخرى : السيد الفقيه الفاضل ، الأعدل ، الأكمل ، الجامع للصفات الفاضلة ، الحسيب الأصيل ،القاضي تقي الدن محمد بن الشيخ الحسيب الأصيل شهاب الدين أحمد بن علي الفاسي ، نفع الله به بفوائده وعلوم الجليلة ، وقد ورد علينا بالمدينة الشريفة ، وحضر معنا درس الفقه والأصول ، وأبدى فيه من فوائده ومباحثه الجليلة ما يليق بعلمه وفضله على طريقة أهل الفنون والمباحث . فرأيته في ذلك كله : أهلاً للتدريس ، والفتوى ، والحكم وإفادة الطالبين ، مع ما جبل عليه من حسن الفهم ، وحسن الإيراد وسعة البال في البحث والمراجعة فيه ، فأوجب ذلك كله الإذن له في التدريس والفتوى ، وإفادة الطلبة حثه إلى الاشتغال بذلك كله ، والملازمة له لينتفع به الناس عموماً ، وأهل بلده خصوصاً ، فإني لم أر في فقهاء المالكية بالحجاز كله من يقاربه في جميع ما ذكرناه - نفع الله به - ولا في اتصافه في العلم ولا الفهم عن الأئمة . انتهى باختصار من أوله وآخره .

وقد أجاز كبار علماء مصر والإسكندرية ودمشق وبغداد أحمد بن عبد القوي بن شداد ، كمال الدين برهان الربعي ، المجاور بالمدينة (ت ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧م)[١] وفي المصادر ما يفيد أن هذه الإجازة كانت تكتب على الورقة الأولى والأخيرة من الكتاب الذي درسه الطالب ، وأحياناً على ورقة منفصلة كإجازة الفاسي السالفة الذكر ، وهذه المهمة لم تكن سهلة على طالب الإجازة لأنه إذا عجز عن القيام بها عاد إلى مكانه في حلقة أستاذه[٢] .

---

(١) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، ج١ ، ص ٣١٨ ، السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص٦١٥ .

(٢) أحمد شلبي ، موسوعة الحضارة الإسلامية ، ج٥ ، القاهرة ، مكتبة النهضة الإسلامية ، ط٦ ، ١٩٨٧م ، ص ٢٦١.

وعني الواقفون من السلاطين وغيرهم باختيار العلماء والمدرسين للتدريس بمدارسهم ، واشترطوا أن يكونوا من المعروفين بالعلم والفضل من ذوي المذاهب الأربعة السنية ، وهذا أيضاً ما كان سائداً في الحرمين الشريفين ، فقد اشترط بعض الواقفين على ذوي هذه المذاهب أن يتصدوا للاشتغال بالعلم الشريف ونشره بين أهله ، وإحياء معالم الدين وشد أزره في كل يوم تجاه الكعبة الشريفة ، أو الحرم النبوي . ومدرس الحديث كمدرس الفقه اشترط الواقفون صدقه وديانته وعدالته وصيانته ، وأن يكون له رواية ودراية بحديث الرسول ﷺ ، حافظاً قدراً في متون الأحاديث والأسانيد ، عارفاً ببعض علومها[١] .

وهذه الشروط كان يطلب توافرها في الأستاذ أو المدرس ، فمكانته ، وخاصة المشهورين منهم في ذلك العصر كانت تفوق مكانة أو مركز المدرسة نفسها ، لأن رواده من طلبة العلم كانوا يرتحلون إليه بالذات أينما كان ويحصلون منه على الإجازات العلمية المؤكدة لنبوغهم ، أو تفوقهم في علم أو عدة علم ، ولهذا كان من شرط الواقفين أن تكون مشيخة مدارسهم وأربطتهم على نوابغ العلماء ، فمدرسة الباسطية بالمدينة الذي أنشأها الزيني عبد الباسط قرر في مشيختها علي بن إبراهيم بن محمد الزين الحسيني العجمي ، الشافعي المكتب ، المجاور بالمدينة ، بل لم يبنها فيما قيل إلا له . وتصدى فيها لأمراء العلوم والتكتيب مع لسان فصيح وقدرة على التعبير ، لوم يختلف على تقدمه في العلم والصلاح من أهل المدين اثنان[٢] ، ورباط ابن الزمن الذي تولى مشيخته علي بن أحمد بن علي بن عبدالله ، القاهري ، الفرضي (ت ٨٩٣هـ / ١٤٨٧م) وقد تولى مشيخته بولاية من الواقف محمد بن عمر بن محمد الخواجا ، المعروف بابن

(١) راشد القحطاني ، أوقاف الأشرف شعبان ص ٩٤ .

(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص ١٨٥ برقم ٥٤٧ ، التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص ٢١٠ ، وفيها وفاته ما بين سنة ٨٦٠ هـ ، ٨٦٢ هـ ، ومثل هذه الحقيقة قد ترددت كثيراً منها ما شرط الواقف مثلاً أن تكون مشيخة الجمالية لعلم علماء الشافعية بمصر . ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ٣٣٨ .

الزمن (ت ٨٩٧هـ / ١٤٩١م) وقد أثرى الحياة العلمية بهذا الرباط ، واجتمع الطلاب على دروسه المتميزة في الفرائض والحساب والفقه[١] .

وكانت الإجازة تمنح للطالب في علم أو عدة علوم ، والعلوم المتداولة هي العلوم الشرعية التي طغت على بقية المواد كاللغة العربية التي قلت عن العلوم الشرعية وبالطبع فهذا يعود إلى الرغبة الملحة والقوية في نشر العلوم الدينية ، وهذا ظهر واضحاً من خلال تراجم علماء هذه الفترة ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر نجد أن السلاطين الواقفين كانوا يجلون الفقهاء والمحدثين أكثر من علماء اللغة ، وهذا واضح من خلال المناصب الدينية بالحرمين كالإمامة والخطابة والقضاء ، التي كان يعين بها فقهاء الشريعة ، ونادراً ما نجد وثيقة وقف حضت على دروس هذه اللغة ، ويأتي بعدها العلوم العقلية التي قل المشتغلون بها .

ومن البديهي أن يكون في مقدمة العلوم الشرعية : القرآن الكريم ، والعناية به وتحفيظه للأطفال وكيفية تلاوته وتجويده بعيداً عن اللحن[٢] ، وممن اشتهروا بهذا الفن من العلماء صالح بن محمود بن محمد بن إبراهيم ، الأصبهاني (ت بمكة ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م) ومن خلال ترجمته تبين أنه أحد المقرئين بالسبع ، والمدرس لعلم القراءات وغيره كالحديث ، فضلاً عن إقرائه للقرآن الكريم[٣] ، كما اشتهر قاضي المدينة محمد بن سليمان المصري

---

(١) هذا الرباط بمكة . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ ، وشيخ الرباط المذكور كان بولاية من الواقف ابن الزمن ، ولادته قبيل ٨٣٠ هـ ، مسموعاته كثيرة في الحساب والفقه ، وتميز في الفرائض والحساب ، وأقرأهما الطلبة ، فأجاد مع ظواهر الفقه ، واستقر به ابن الزمن في مشيخة رباطه واقرأ الطلبة فيه ، وجاور بالمدينة أشهراً ، وتردد إلى السخاوي بمكة ، وقال عنه نعم صلاحاً وسلامة فطرة وانعزالاً عن الناس ، مات بمكة في مجاورة بها على المشيخة مرة أخرى في صفر سنة ٨٩٣ هـ ، ودفن بالمعلاة . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص ١٧٣ برقم ٥٩٨ .

(٢) ابن جبير ، رحلته ، ص ١٢٧ — ١٢٩ ، وراجع التعليم في مكاتب السبيل بهذا البحث .

(٣) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٥ ، ص ٢٩ — ٣٠ برقم ١٣٩٣ ، ومن تلا بالروايات بعشرين كتاباً هو عبدالله بن عبدالحق المصري ، وفاته ٧٢١ هـ . سماعه ومسموعاته كثيرة وسعت سائر العلوم الدينية ، وخلفه ابنه محمد (ت ٧٢٣ هـ) الذي أسمع مشاهير علماء الحجاز ، اجتمع به الناس وبغيره بعرفة وسمعوا بقراءاته . ابن

(ت٧٦٦هـ / ١٣٦٤م) في علم القراءات ، ومن أهم مصنفاته " النجوم الزاهرة في السبعة المتواترة "[١] وفي التفسير ألف عبدالله بن فرحون (ت ٧٦٩هـ / ١٣٦٩م) في هذه المادة " نهاية الآية في شرح آية "[٢] .

واشتهر بعض علماء الحديث بالإملاء[٣] ، قال السخاوي في كتابه " فتح المغيث " : " وأمليت بمكة وبعدة أماكن من القاهرة ، وبلغ عدة ما أمليته من المجالس إلى الآن – أي عصره – نحو الستمائة ، والأعمال بالنيات "[٤] ، والتقي الفاسي (٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) الذي حصل معارفه الفقهية على مشاهير البلاد الإسلامية ومكة والمدينة وحدث بها وألم بسائر العلوم الشرعية والعربية والتاريخية ، له في الحديث (أربعون حديثاً متباينة الأسانيد والمتون بالسماع المتصل من حديث العشرة المشهود لهم بالجنة ، والصحابة الذين انتهى إليهم العلم ، والصحابة المكثرين والعبادلة الأربعة والأئمة الربعة أصحاب المذاهب المتبعة)[٥] .

كثير ، البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص ١٠٠ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج٥ ، ص ١٩٦ – ١٩٩ برقم ١٥٦٢ ، ج٢ ، ص ٦٤ برقم ٣١٦ .

(١) الزركلي ، الأعلام ، ج٦ ، ص ١٥٠ .

(٢) ابن فرحون ، الديباج المذهب ، ج١ ، ص ٤٥٧ ، وممن اشتهر بكثرة أنشطته العلمية والتصنيفية في أكثر من علم / المحب الطبري (ت ٦٩٤ هـ) ومن مصنفاته في التفسير (الكافي في غريب القرآن الجامع بين القريزي والبيان) مجلد ، وكتابه (مرسوم المصحف العثماني المدني) وغيرهما ، وله في الحديث (كتاب الأحكام الكبرى) ، و (الأحكام الوسطى) ، و (الأحكام الصغرى) ، يتضمن ألف حديث وخمسة عشر حديثاً . العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٦١ – ٦٣ برقم ٥٧١ .

(٣) الإملاء اشتهر في هذه الفترة ، والمملي : هو المحدث ، والتلاميذ يكتبون ما يمليه ، والإملاء يشبه في عصرنا الحاضر المحاضرات التي يلقيها الأستاذ على طلابه وهم يكتبون عنه ما يمليه . الشوادي ، منهج ابن حجر في كتابه فتح الباري ، ص ٢١ ، ٢٢ والهامش .

(٤) وللقطب القسطلاني ت ٦٨٦ هـ كثير من المؤلفات منها (الورد الزائد في بر الوالد) ، و (وسيلة العباد في فضيلة الجهاد) وغيرهما . السخاوي ، فتح المغيث ، شرح ألفية الحديث للعراقي ، تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان ، ط٢ ، المدينة المنورة ، المكتبة السلفية ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م ، ص ١٩ ، الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج٢ ، ص ١٣٢ ، اليافعي ، مرآة الجنان ، ج٣ ، ص ٣١٠.

(٥) الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ٣٣١ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٧ ، ص ١٩ .

وأما الفقه فقد انتشرت مذاهبه في بلاد الحجاز ، وأول هذه المذاهب انتشاراً المذهب الشافعي كما كان كذلك في البلاد الإسلامية ، لاسيما مصر والشام بلاد السلاطين المماليك ، والحجاز بحكم تبعيته آنذاك لحكمهم ، ويفسر هذا كثرة مصنفات الفقهاء أنصار المذهب الشافعي إذا قورنت بمؤلفات أنصار المذاهب الأخرى ، وأدى تشجيع السلاطين وغيرهم على تحول بعض العلماء والطلبة من مذاهبهم على هذا المذهب من خلال أموالهم الموقوفة التي أسهمت في إنشاء المؤسسات التعليمية[١] ومن قصر منصب من المناصب الدينية على علماء الشافعية ، وقد تميز هذا المذهب على غيره في إمامة المقام ، فالشافعي هو الذي يبدأ أولاً الصلاة بالحرم الشريف ، ومن المؤلفات الشافعية الكثيرة : (التنبيه في فروع الشافعية) لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الفقيه الشيرازي الشافعي (ت ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م) وأحد الكتب المشهورة وأكثر تداولاً[٢] ، و (منهاج الوصول إلى علم الأصول) مختصر للإمام ناصر الدين عبدالله البيضاوي (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)[٣] وغيرهما .

وبعد هذا المذهب في الأهمية يأتي أتباع المذهب المالكي ، وأغلب من اعتنق أو انتمى إلى هذا المذهب ترجع أصولهم إلى المغرب العربي[٤] والأندلس ، كالفاسي في مكة المكرمة[٥] ، وابن فرحون[٦] في المدينة ، وغيرهما ممن لهم نشاط ملحوظ في تدريس الفقه المالكي بالمدينتين المقدستين .

ومن المؤلفات التي تناولها فقهاء هذا المذهب كتاب (منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل) للعالم الشهير جمال الدين عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب المالكي ، والمتوفى سنة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) ، وقد صنفه أولاً ،

(١) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .
(٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ، ص ٤٨٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٧٨ .
(٤) الفاسي ، العقد الثمين ، ج ٢ ، ص ٨٣ .
(٥) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .
(٦) ابن فرحون ، نصيحة المشاور ، ص ١٠٤ — ١٠٥ .

ثم اختصره ، وهو مشهور (بمختصر المنتهى) ، (مختصر ابن الحاجب)[١] وغيره من كتب المالكية[٢] .

ويأتي بعده المذهب الحنفي ، ومن المؤلفات التي تناولها فقهاء الحنفية (كنز الدقائق) في فروع الحنفية لأبي البركات عبدالله بن أحمد ، المعروف بحافظ الدين النسفي (٧١٠هـ / ١٣١٠م)[٣] .

وأخيرا يأتي المذهب الحنبلي ، وأتباعه قلة ، ونشاطه أقل من بقية المذاهب السابقة ، ومن مؤلفاته التي تناولها فقهاء هذا المذهب (الكافي في فروع الحنبلية) للشيخ موفق الدين عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م)[٤] .

ومن خلال ما سبق يتضح أهمية الوقف والدور الذي لعبه في النمو العلمي من خلال مدارسة المذاهب الأربعة المشهورة في بلاد الحجاز ، ومن مشاهير العلماء في تلك الفترة سليمان بن خليل العسقلاني ، المكي الشافعي ، إمام وخطيب المسجد الحرام ومفتيه ، حدث بالكثير ، ودرس وأفتى وألف كتاباً في المناسك ، يقول الفاسي : " رأيته بخطه في مجلدين " ، اشتغل بمدارسة (التنبيه)[٥] على مذهب الشافعي ، وكان أبوه حنبلياً ، ولما ولي الخطابة بالحرم أقام السنة في الخطبة بمنى[٦] ، ومن العلماء المشهورين محمد بن عيسى

(١) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٨٥٣ .

(٢) كان بمكة خزانة المالكية ، وقد وقف محمد بن عبدالله المكناسي إمام المالكية بالحرم الشريف سنة ٥٨٨ هـ (المقرب) لابن أبي زمنين المالكي لست مجلدات على المالكية والشافعية والحنفية الذين يكونون بمكة ، وجعل مقره بخزانة المالكية ، (ولم يذكر الميورقي وفاته) ، المكناسي نسبة إلى مكناسة وهي مدينة بالمغرب من بلاد البربر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص ١٨١ ، وابن زمنين هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي زمنين الأليدي المكي ، المتوفى سنة ٣٩٩ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٧٤ وحاشيتها .

(٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٥١٥ .

(٤) المرجع السابق ج٢ ، ص ١٣٧٨ .

(٥) التنبيه في فروع الشافعية لأبي إسحاق الشيرازي الشافعي ، المتوفى سنة ٤٧٦ هـ ، وهو أحد الكتب المتداولة تدريساً ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص ٤٨٩ .

(٦) يقول الفاسي في خطيب وإمام الحرم خليل المذكورة ، كان مفتي الحرمين ، يعيب على الخطباء بمنى الخطبة قبل الرمي ، فلما ولى الخطابة أقام السنة ، وجملة ما قيل فيه يشهد له بسمو خلقه وفيض علمه ،

الأزدي الدوسي ، المتوفى بالمدينة ، ومن مؤلفاته نظمه (للتنبيه) لأبي إسحاق الشيرازي ، وشرحه ذلك في أربع مجلدات ، وله في الفقه أيضا (المقتضب) وتم وقفهما برباط ربيع[1] ممن وسعت معارفهم العلوم الشرعية والتاريخية القطب القسطلاني[2] ومن مصنفاته كتاب في المناسك ، وله مؤلفات في التاريخ : (عروة التوثيق في النار والحريق) ، واستفاد منه السمهودي في كتابه وفاء الوفا[3] .

ومن العلماء المشهورين المحب الطبري الذي أثرى المكتبة الإسلامية بكثير من مصنفاته ، فله في الفقه مجموع من الخلاف ، وشرح التنبيه في عشرة أسفار ، ونكت كبرى عليه ، ونكت صغرى لم يتم منها إلا مجلد ، وله في التاريخ : (الرياض النضرة في فضائل العشرة) ، وكتاب : (ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى) ، وكتاب : (السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين)[4] ، ولابنه محمد المتوفى سنة وفاة أبيه كتاب في المناسك سماه : التشويق على البيت العتيق[5] ، وهذا الكتب يتضمن أسرار الحج والشوق إليه ، وما ينبغي على كل حاج عمله ، ويتحدث عن البيت الحرام وحدوده ، وقد قسمه إلى ثلاثين باباً وخاتمة ، وهو كتاب جامع للفقه والتاريخ ، وممن اشتهر في الفقه وبرع فيه وفي

وانه كان عليه مدار الفتيا أيام المواسم ، وفاته ٦٦١ هـ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج٤ ، ص ٦٠٣ – ٦٠٥ برقم ١٣٣١ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٨٨ .

(١) وفاته بالمدينة سنة ٦٧٤ هـ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ برقم ٣٥٢ ، ورباط ربيع : موقوف عن موكله الأفضل علي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وتاريخ وقفه سنة ٥٩٤ هـ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) هو : محمد بن احمد بن علي ، وفاته سنة ٦٨٦ هـ . الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج٢ ، ص ١٣٢ برقم ٤٨٠ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ / ص ٣٢٢ .

(٣) نقل منه السمهودي في جزئه الأول من ص ١١٤ وما بعدها ، وفي جزئه الثاني من ص ٥٩٧ وما بعدها ، وذكر حريق المسجد النبوي ، وعظم لطف الله تعالى في حدوث ذلك .

(٤) هو : احمد بن عبدالله بن محمد ، المتوفى سنة ٦٩٤ هـ ، ومصنفاته كثيرة . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٦٣ – ٦٤ برقم ٥٧١.

(٥) توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية ، مخطوطة برقم ٢١٢/٨ ب حوالي ١١٣ ورقة ، فهرس المخطوطات بدار الكتب من عام ١٩٣٦ – ١٩٥٥م ، تصنيف فؤاد سيد ، ج١ ، ص ١٥٩ .

أصوله ، فضلاً عن النحو والمنطق وغير احمد بن محمد الشيرازي ، المجاور بمكة (٨٦١ هـ / ١٤٥٦م) ، وكان بليغاً يشرح التوحيد ، واستفاد منه كثير من طلبة العلم ، ومن مؤلفاته شرحه على الحاوي[١] ، كما اشتهر عبدالرحمن بن الحسين الكردي ، المجاور بالمدينة بكثرة مصنفاته التي منها : (الاستعانة بالواحد من إقامة جمعتين في مكان واحد) ، و (تاريخ تحريم الربا) ، و (تكملة شرح المهذب للنووي)[٢] وغير ذلك .

وممن اشتهروا من فقهاء المالكية على بن محمد بن أبي القاسم فرحون (ت ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م) الذي أثرى الحياة العلمية عن طريق اشتغاله بالفقه والعربية بالمسجد النبوي ، ومن مصنفاته في الفقه (الجواب الهادي عن أسئلة الشيخ أبي هادي)[٣] ، وكان لابنه إبراهيم (ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م) في الفقه المالكي (منضدة الأحكام) ويسمى (تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام)[٤] .

واشتهر كثيرون من علماء المذهب الحنفي ، منهم ابن ضياء ، محمد بن أحمد بن محمد (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠م) ومن مصنفاته الكثيرة (المسرع في شرح المجمع) ويسمى أيضاً (شرح مجمع البحرين) لابن الساعاتي في أربع مجلدات[٥] ، وغيره ، ولابنه محمد الرضي ، أبو حامد (ت ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤م)

---

(١) ابن فهد ، الدر الكمين ورقة ١٤٩ أ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص ١٨٩ .

(٢) وفاته سنة ٨٠٦ هـ . السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٥٦٢ — ٥٦٣ .

(٣) وكان أبو هادي الذكور من شيوخ القيروان ، وله حاشية على شرح ابن الحاجب لابن عبدالسلام ، تحدث فيها على ما لم يتكلم عليه الشارح من أصل المؤلف ، وعقب على الشارح في مواضع كثيرة إلى أثناء كتاب الحج . ابن فرحون ، الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ١٢٤ — ١٢٦ .

(٤) طبع بمراجعة وتقديم طه عبدالرؤوف سعد ، ونشرته مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة ، وصدرت طبعته الأولى سنة ١٤٠٦هـ وهو جزءان في مجلد واحد ، وله أيضاً " درة الغواص في محاضرة الخواص " ، و " إرشاد السالك إلى أفعال المناسك " ، و " قواعد الإسلام " وغيرها . ابن حجر ، الدرر الكامنة ،ج١، ص ٤٨، السخاوي ، التحفة اللطيفة،ج١، ص١٣١-١٣٢،وحاجي خليفة ، كشف الطنون ، ج١، ص٣٣٩ .

(٥) ابن فهد ، معجم الشيوخ ، ص ٢١٣ — ٢١٤ .

شرح على الكنز ، وصل فيه إلى الظهار في نحو مجلدين ، وصنف غير ذلك[١] .

وعلى الرغم من قلة أنصار المذهب الحنبلي ، فقد كان له نشاطه على يد محمد بن احمد بن سعيد المقدسي الحلبي ، المجاور بمكة من سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠م حتى وفاته سنة (٨٥٥ هـ / ١٤٥١م) وقد كان عالماً مشهوراً أهله علمه لقضاء الحنابلة وإمامة الحرم الشريف ، من مصنفاته (الشافي في الكافي) في مجلد ، و (كشف الغمة بتيسير الخلع لهذه الأمة) في مجلد ، و (سفينة الأبرار الجماع للآثار والأخبار) في المواعظ في ثلاث مجلدات ، و (الآداب)[٢] ومن علماء الحنابلة أحمد بن محمد بن أحمد ، أبو الفضل شهاب الدين ، المجاور بالمدينة ، ومن مصنفاته (التوضيح)[٣] .

ولم يكن ببلاد الحجاز في تلك الفترة اهتمام كبير بعلم العقائد لذلك قل المشتغلون به والراغبون فيه ، وكانت عقيدة أهل السنة والجماعة هي السائدة في مصر والشام وفي المدينتين المقدستين ، وكان ما يحدث من خلافات حول بحوث العقيدة يكون له في بلاد الحجاز صدى ، كخلاف علماء الشام ومصر حول ابن عربي وعقيدته ، فقد انتقل صداه إلى بلاد الحجاز لكن على صورة مصغرة لقلة المهتمين بدراسة العقائد فيها ، وعلى الرغم من ذلك نجد علي بن أحمد بن محمد الشيرازي ، ثم المكي الشافعي[٤] (ت ٨٦١ هـ / ١٤٥٦م) ، تحدث في علم التوحيد ، وأخذ عنه الكثيرون من أهل مكة والوافدين إليها ، وعبدالمحسن بن عبدالصمد بن لطف الله الشرواني الشافعي (ت ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤م) الذي جاور بمكة واخذ عنه الفضلاء شرح العقائد وأثنوا عليه[٥] .

ولمؤرخ المدينة السمهودي (الأنوار السنية في أجوبة الأسئلة اليمنية) وهي

---

(١) ابن فهد ، معجم الشيوخ ، ص ٢١٥ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٧ ، ص ٨٦ .

(٢) ابن فهد ، معجم الشيوخ ، ص ٢٠٤،٢٠٥، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٦، ص ٣٠٩ ، التبر المسبوك ، ص ٣٦٣ .

(٣) الزركلي ، الأعلام ، ج١ ، ص ٢٢٣ .

(٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص ١٨٩ .

(٥) المرجع السابق ، ج٥ ، ص ٧٨ ، ج٦ ، ص ٤٨ .

ثمانية أسئلة في العقيدة وردت من الشيخ أبي عبدالله محمد بن أحمد بن مجيد اليمني سنة ٩٠٧هـ / ١٥٠١م) فأجاب عنها[١] .

وآخر من كانت لهم عناية بهذا العلم في عصر المماليك : عبد رب النبي بن محمد بن عبد رب النبي المغربي ، ثم الدمشقي المالكي (ت ٩٢٣هـ / ١٥١٧م) الذي درس بمكة وغيرها أصول الدين لمبتدئي الطلبة[٢] .

وشاركت مكة والمدينة في إثراء علوم اللغة والنحو من خلال علمائها والوافدين إليها كمحمد بن عبدالله بن محمد الأندلسي (ت ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م) الذي قام بدور ملحوظ في إثراء الحياة الأدبية ببلاد الحجاز ، وترجم له المحب الطبري في كتابه (التعريف بمشيخة الحرم الشريف) ، وتناول ذكره في كتابه الآخر المسمى (العقود الدرية والمشيخة المكية المظفرية) وأثنى عليه قائلاً : " . . . لم يزل مشتغلاً من صغره إلى كبره ، وله المباحث العجيبة والتصانيف الغريبة . . - إلى أن قال - ناظر وقرأ وأقرأ ، واستفاد وفاد . . . ويقر له بعلمه وفضله كل محل ثم قال : وجاور بمكة سنين كثيرة "[٣] ، وقد اشتهر بنبوغه في كل فن من فنون العلم كعلوم القراءات ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، وغيرها ، وله مؤلفات فيما ذكر[٤] ، من مصنفاته في اللغة (الضوابط الكلية في علم العربية)[٥] ، و (الكافي في النحو)[٦] ، (الإملاء عل عل المفصل)[٧]، وقد ألف محمد بن المحب الطبري (ت ٦٩٤هـ/١٢٩٤م) كتاباً

---

(١) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص ١٩٤ .

(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص ٩٠ .

(٣) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٨٢ — ٨٣ .

(٤) السيوطي ، بغية الوعاة ، ج١ ، ص ١٤٤ — ١٤٦ .

(٥) منه نسخة مصورة بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجماعة أم القرى ، ميكروفيلم ، رقم ١٣٣٦ ١٣٣٦ نحو ، عن مكتبة برلين بألمانيا الغربية برقم ٢٤٢ ، أوراقه ١٤٣ ورقة .

(٦) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٨٢ ، السيوطي ، بغية الوعاة ، ج١ ، ص ١٤٥ .

(٧) ذكر هذا الكتاب ياقوت في معجم الأدباء ، ج٥ ، ص ٣٤٩ ، المفصل هو كتاب في النحو لجار الله أبي القاسم الزمخشري ، وقد تناوله في أربعة أقسام ، الأول في الأسماء ، والثاني في الأفعال ، والثالث في الحروف ، والرابع في المشترك من الأسماء والأفعال ، ثم اختصره وسماه " الأنموذج " وقام كثير من العلماء بشرحه . حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٧٤٤ .

في اللغة أسماه " عمدة المتلفظ بتنظيم كفاية المتحفظ في اللغة "[١] .

وقد شارك شهاب الدين أحمد بن إسماعيل الأبشيطي (ت ٨٨٣ هـ / ١٤٧٨م) في الحركة العلمية ، بمؤلفاته التي شملت العلوم الشرعية كالفقه وأصوله ، واللغة العربية كالعروض ، والعلوم العقلية كالحساب والفروض والمنطق ، ومن خلال مجاورته بالمدينة أكثر من عشين سنة انتفع به العديد من طلبتها ، ومن مؤلفاته (التحفة في العربية) ، و (شرح البردة) ، و (شرح قواعد ابن هشام) .

وممن برع في الأدب علي بن حمد بن أبي القاسم فرحون (ت ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م) ، ومن مؤلفاته (الزاهر في المواعظ والحكايات والأحاديث والذخائر)[٢] .

ومن خلال المصادر يبدو أن بعض العلماء كانوا يتخصصون في علم واحد ، وكثير منهم يتبحر في مجموعة من العلوم ، ويجمع بعضهم بين التدريس والتصنيف ، وفي ترجمة علي بن مسعود بن فيروز البغدادي ، المجاور بمكة (ت ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م) أنه سمع من مشاهير علماء مكة ، وأجاز لابن مسدي[٣] ، مسدي[٣] ، وذكر الفاسي أنه كان مجبراً ببيمارستان مكة[٤] ، ويبدو أن

(١) الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ٢٩٤ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٥٠٠ .

(٢) مخطوط ، (الزركلي ، الأعلام ، ج٥ ، ص ٦) .

(٣) ابن مسدي الذي أجازه ابن فيروز المجبر بالبيمارستان المكي هو الحافظ أبو بكر بن يوسف الأسدي الغرناطي ، الشهير بابن مسدي ، المجاور بمكة وخطيبها ، توفي بمكة في رباط القزويني مقتولاً سنة ٦٣٣ هـ ، وهو العالم الشهير الذي أثرى الحياة العلمية من خلال ما رواه ، وما جمعه وصنفه ، واتصف بصفات تنم عن سعة علومه ، وبأنه علامة ، ذو رحلة واسعة إلى مشرق العالم الإسلامي ومغربه ، وأجيز من فيروز المذكور ومن غيره وأجاز لغيره ، من مصنفاته (الأربعون المختارة في فضل الحج والزيارة) وغيرها ، وكثرة مصنفاته تدل على أنه من بحور العلم ، لكنه كان يأخذ الأجرة على تحديثه بالمدينة المنورة . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج٢ ، ص ٢٥ ، الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٥ ، ص ٣١٣ .

(٤) ابن مسدي الذي أجازه ابن فيروز المجبر بالبيمارستان المكي هو الحافظ أبو بكر بن يوسف الأسدي الغرناطي ، الشهير بابن مسدي ، المجاور بمكة وخطيبها ، توفي بمكة في رباط القزويني مقتولاً سنة ٦٣٣ هـ ، وهو العالم الشهير الذي أثرى الحياة العلمية من خلال ما رواه ، وما جمعه وصنفه ، واتصف بصفات تنم عن سعة علومه ، وبأنه علامة ، ذو رحلة واسعة إلى مشرق العالم الإسلامي ومغربه ، وأجيز من فيروز المذكور ومن غيره وأجاز لغيره ، من مصنفاته (الأربعون المختارة في فضل الحج والزيارة) وغيرها ، وكثرة مصنفاته تدل على أنه من بحور العلم ، لكنه كان يأخذ الأجرة على تحديثه بالمدينة المنورة . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج٢ ، ص ٢٥ ، الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٥ ، ص ٣١٣ .

البيمارستان المستنصري بمكة لم تقتصر مهامه على استقبال المرضى من سكان مكة والمجاورين والوافدين ، وعلاجهم من جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية ورمدية وغيرها ، بل كان يدرس به الطب ، وقد أفاد السخاوي بان من جملة أطبائه الذين ورثوا الطب عن آبائهم محمد بن أحمد بن عبدالله بن أحمد الطبيب الفاضل شمس الدين ، ولادته في منتصف جمادى الأولى سنة (٧٤٥هـ / ١٣٤٤م) بمكة ومال إلى الطب ، وحفظ الموجز لابن نفيس وشرحه ، وتصرف في معالجة المرضى ، وصحب مشاهير هذا الفن ، فمهر فيه ، وساعده على ذلك كثرة الوقفيات على هذا البيمارستان من السلاطين الذين وقفوا على بيمارستان مكة والمدينة وعلى الموظفين والأطباء أموالاً سخية ، يضاف إليها – كما ذكر السخاوي – أن هذا الطبيب : " تعلق بالذكي الخروبي التاجر ، وجاور معه بمكة ، فأجزل له من المال بحيث إنه دفع له مرة في مجاورته معه ألف مثقال ذهب . . دفعة . ذكره المقريزي في عقوده ، وقال : كان يتردد إلى – أي المقريزي – كثيراً ، وله ثروة وحسن شكا له " وفاته في ١٠ من شوال سنة ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م[1] ، وكان بهذا البيمارستان محمد بن محمد بن عبدالله بن صغير الطيب الذي قرأ الطب على والده ، والأدب على مشاهير علمائه ، وحج في سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م[2] ، وكان بهذا البيمارستان كثيرون من الأطباء الجراحين والكحالين وحكيم البيمارستان ، ومنهم ، محي الدين احمد بن الحسين بن تمام الذي أرسله السلطان الظاهر بيبرس من الديار المصرية[3] للمشاركة في معالجة مرضى البيمارستان مع نظرائه من الأطباء، ومهمة هؤلاء كانت في مباشرة المرضى مجتمعين ، ومتناوبين ، والسؤال عن أحوالهم ، وما يستجد على مرضاهم ، وتقرير ما يصلح لكل منهم من أدوية ، أو أشربة ، أو نحو ذلك .

---

(١) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص ١٩٠ برقم ٥١٠ .
(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٦ ، ص ٣٢٤ .
(٣) الكتبي ، فوات لوفيات ، ج١ ، ص ٢٤٣ .

ومن الأطباء المجاورين الذين كانت لهم معرفة بالطب ، ويقومون بمعالجة المرضى مع تقديم ما يلزمهم من دواء إبراهيم بن احمد بن محمد الإردبيلي (ت ٧٧١ هـ / ١٣٦٠م) الذي جاور بمكة مدة طويلة زادت على تسع وثلاثين سنة ، وكان مشهوراً بالطب والكيمياء ، ومحاضراته مشهورة بالمسجد الحرام[١] ، ومحمد بن إسحاق الشيرازي (ت ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢م)[٢] المجاور بمكة سنين كثيرة ، وأفاد السخاوي ببراعته في الطب ، وانتفع به خلق كثير ، وكان يقدم ما يحتاج إليه مرضاه من أدوية وغيرها[٣] .

وأسهم أبو عثمان الحكيم المغربي في الرعاية الطبية بدور كبير ، فقد جاور بمكة أعواماً طويلة ، وزادت حجاته على الستين ، وتشير بعض المصادر على أنه كان من الأطباء المشهورين بمكة في تلك الفترة[٤] وكان محمد ابن عبدالله المصري ، ثم المعروف بالخضري ، متفوقاً في الطب والكيمياء والنجوم ، وأقام بمكة مجاوراً ، وفاته سنة (٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م)[٥] ، أما من كان حجة في الطب والمنطق والفلسفة ، فهو محمد بن عبدالله الكازروني ، المجاور بمكة (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م)[٦] .

وممن جمعوا بين علاج المرضى ، وتدريس الطب : لطف الله بن يعقوب بن إسماعيل الهمذاني ، المجاور بمكة ، وذكر السخاوي معالجته لأخيه في أثناء إقامته بمكة[٧] .

وبرع في الحساب مع اشتغاله بالفقه والفرائض : محمد بن علي بن أحمد بن

---

(١) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٢٠٠ – ٢٠١ .
(٢) الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ٤٠٩ – ٤١٠ .
(٣) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٧ ، ص ١٣٢ .
(٤) ذكر الفاسي انه جاور بمكة سنين كثيرة ، حتى مات بها في أوائل المائة الثانية ، كما ذكر " أظنه سعيد بن عبدالله بن محمد الزواوي الملياني " . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٨، ص ٧١ برقم ٢٩٤٤ .
(٥) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج٢ ، ص ٣٤٦ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٨ ، ص ١٢١ .
(٦) ابن فهد ، الدر الكمين ، ورقة ٣٢ ب .
(٧) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ٢٣٣ .

ظهيرة (ت ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩م)[١] . وإبراهيم بن علي بن محمد الزمزمي (ت ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩م) الذي كان عالماً بالحساب والفرائض والجبر والمقابلة ، والهيئة والهندسة وعلم الميقات[٢] .

وكانت النهضة العلمية ثمرة من ثمرات الأوقاف التي وفرت كل الوسائل للرقي بالعلوم المختلفة .

د ـ توفر خزائن الكتب والمكتبات بالمدينتين المقدستين :

قامت الأوقاف بدور مميز في الحركة العلمية في تلك الفترة عن طريق توفير الكتب[٣] بالحرمين الشريفين ، وسائر المنشآت التعليمية بالمدينتين المقدستين .

ولأهمية الكتب ونفعها في تعليم وتثقيف أجيال الأمة الإسلامية ، فقد وقفها السلاطين وغيرهم من أثرياء المسلمين على الحرمين الشريفين ، والمساجد عموماً ، ودور العلم المختلفة كالمدارس والأربطة[٤] ونحوها ، ووقف هذه الكتب مثل مصدراً رئيسياً من مصادر تزويد

---

(١) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٦ .

(٢) ابن فهد ، معجم الشيوخ ، ص ٤٥ .

(٣) تطلب توفير الكتب إنشاء المكتبات في الإسلام ووقفها ، أو الوقوف عليها من الكتب والأموال ، ولقد اتخذت هذه المكتبات أسماء متعددة مثل خزانة الكتب ، أو محل الكتب ، أو بيت الكتب ، أو دار الكتب ، أو دار العلوم ونحوها ، وجميعها كانت تقوم بمثل ما تقوم به المكتبات العامة في وقتنا الحاضر ، وقد تفرع عنها في القرن الخامس الهجري المؤسسات الوقفية الأخرى التي كانت تدعى باسم دور القرآن الكريم ، ودور الحديث وكانت هذه الأماكن مقر اجتماع المسلمين الذين يناقشون أمورهم فيها بحرية كاملة ، ولا شك أنهم واجهوا المسائل التي واجهت العلم الإسلامي في وقتها بكل ما وجد فيه من اتجاهات فقهية ، أو ملل ونحل عقائدية ، أو مذاهب أخرى كان بها مشاكل مطروحة واجهوها بشجاعة لم تعرفها سائر الأمم الأخرى إلا في وقت متأخر ، ومما ساعد رواد الحركة العلمية من الطلاب والعلماء على مثل هذه الحرية أن العلماء لم يعتمدوا على موارد يأخذونها من الدولة بل اعتمدوا في أمور حياتهم للحصول على شتى المعارف بما أتاحته لهم المكتبات الموقوفة ، والموقوف عليها بسخاء ، لأن أكثر الوقف آنذاك لم يكن مقصوراً على بناء المكتبات ، أو شراء كتبها ، بل شمل ما ينفق على روادها ، فبعدوا عن الخضوع للسلطات ، أو أي مذهب عقائدي ، أو تجاه ديني متزمت قد يطالبهم بالالتزام به ، وهذه الركائز التعليمية في مجتمعنا الإسلامي قد استفاد منها من الغرب الذي بنى على نمطها منظماته التعليمية ، عبدالملك أحمد السيد .
Classical Arabic Islamic political theories, austsg, Boulder, 1979, p 485

(٤) حرص الواقفون في العصر المملوكي على أن يلحقوا بكل مدرسة " خزانة كتب " يرجع ليها رواد العلم من العلماء والطلبة ، ولا سيما الفقراء منهم مثال ذلك ما جاء في وثيقة وقف السلطان الغوري التي ذكر

المكتبات بما يلزمها ، ود كثرت الكتب الموقوفة في هذه الفترة وتعددت مصنفاتها ، ولم يقتصر وقفها على السلاطين والأمراء والأعيان ، بل شمل العلماء المجاورين ، كرشيد بن عبدالله شهاب الدين ، وهو الفقيه المتدين المتعبد الذي كان يصحب العلماء ، ويأخذ عنهم ، ويشتري كتب العلم ويوقفها عليهم ، وفضلاً عن ذلك فقد كانت لديه خزائن تضم غرائب المصنفات[١] ، وكذلك فعل إبراهيم بن رجب بن حماد العاري السلماني الشافعي الذي كانت له كتب نفيسة وقفها بالمسجد النبوي[٢].

وعندما تعرض المسجد الحرام لسيل عظيم سنة (٧٣٨هـ / ١٣٣٧م) ، وتعرض المسجد النبوي لحريق في رمضان سنة (٨٨٦ هـ / ١٤٨١م) ، أثر السيل والحريق على خزائن الكتب في الحرمين الشريفين ، مما دعا الواقفين إلى تعويض تلك الخزائن بمصاحف وكتب أخرى بدلاً من التالفة والمحترقة .

وقد أرسل السلطان قايتباي وغيره مصاحف كثيرة ، وكتبا لخزانة المسجد النبوي[٣] .

وفي مدرسة قايتباي بمكة ، خزانة كتب وقفها السلطان على طلبة العلم ، وجعل لها خازناً ، وعين له راتباً مقابل عمله في حفظ الكتب والعناية بها وتنظيمها لرواد هذه المدرسة ، ومرتبات هذا الخازن وغيره كانت تصرف ذهباً من ريع وقف هذا السلطان[٤] ، أما مدرسة قايتباي بالمدينة ، فقد أرسل لها هذا

بمدرسته مكتبة " . . . لخزن الكتب بها جنبات خشب نقي يمنة ويسرة وصدراً مثبتة معدة لحفظ ما فيها من كتب العلم الشريف الموقوفة على طلبة العلم الشريف لانتفاعهم بها في المدرسة " وثيقة وقف السلطان الغوري ، رقم الوثيقة (٨٨٣) أوقاف ، سطر ١٣٢ ، ١٣٣ ، دراسة عبداللطيف إبراهيم ، وانظر أيضاً : وثائق وقف كل من السلطان برسباي ، رقم الوثيقة (٨٨٠) أوقاف ص ١٩١ ، وحسام الدين لاجين ، رقم الوثيقة ١٧٠) ، (١٨) محفظة (٣) ، دار الوثائق ، السلطان ، حسن ، رقم الوثيقة (٨١١) أوقاف ، ص ٤٣٧ ، ٤٥١ ، وغيرها من وثائق الوقف .

(١) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٦٤ — ٦٥ .

(٢) هو : إبراهيم بن رجب بن حماد ، نزيل المدينة ، الشافعي ، الذي جمع بين العلم والعمل ، وفاته سنة ٧٥٥ هـ. السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج١ ، ص ١١٣ — ١١٤ برقم ٤١ .

(٣) السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٣ ، ص ٤١٠ ، السمهودي ، وفاء الوفا ، ج٢ ، ص ٦٤٣ ، العصامي ، النجوم العوالي ، ج٥ ، ص ٤٥ .

(٤) القطبي ، ص ٢٢٠ ، العصامي ، سمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص ٤٤ .

السلطان خزانة كبيرة من الكتب ، وهي موقوفة على طلبة العلم ، وأرسل مصاحف كثيرة ، وجعل الأشراف والنظر على هذه الكتب وغيرها للسمهودي(١) مؤرخ المدينة ، وذلك بوساطة من البدري أبي التقا(٢) .

وقايتباي من بين سلاطين المماليك ، هو الذي اعتنى بوجود خزائن الكتب في منشآته العلمية بالحرمين الشريفين ، وكان من جملة خزائنه التي وقفها على مدرسته بمكة لطلبة العلم ربعة مكتوبة بالذهب الخالص من أولها إلى آخرها ، ويفيد النهروالي أن أيدي المستعيرين(٣) استولت عليها وضيعوا أغلبها ، ولم يبق منها سوى ثلاثمائة كتاب ، قام النهروالي بصيانتها وتجليد بعضها(٤) كما جهز السلطان قايتباي بهاء الدين أبو البقاء بن الجيعان البدر محمد بن يحيى بن شاكر بن عبدالغني ومعه أحمال من كتب العلوم الشرعية ، وكان

---

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص ٢٤٧ .

(٢) هو : أبو بكر بن عبدالله بن محمد ، الدمشقي ، القاهري ، الشافعي ، المجاور بمكة والمدينة ، وفاته بغزة سنة ٨٩٤ هـ ، وله كتب منها (غرر الصباح في وصف الوجوه الصباح) ، و (نزهة الأنام في محاسن الشام) . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ١٤٥ .

(٣) حدد الواقفون نظام الاستعارة ، محافظة على الكتب من الضياع ، فمن الواقفون من منع خروج الكتب نهائياً خارج مؤسسته ، بل حرمها على من عرف بالتفريط ، فنصت إحدى الوثائق على ألا " يخرج منذ ذلك شيء من الأشياء . . . برهن ولا بغيره ، ولا يعطى من ذلك شيء لمن يعرف فيه التفريط " ، وثيقة وقف الأبشادي ، برقم (٢٧٨) محفظة (٤٣) ، دار الوثائق القومية ، سطر ٨٩ ، ٩٠ ، دراسة ونشر عبداللطيف إبراهيم ، ومن الواقفين من سمح لطلبة العلم باستعارة الكتب لمدة شهر ، وسمح لهم بأخذها إلى مساكنهم بشرط أن يكونوا ثقة ، وإن كان مما يخشى منه منعه إلا أن يضمنه نفر . . . ولا يترك شيء من الكتب المستعارة بيد المستعير أكثر من شهر واحد من حين استعارته بل يأخذه منه عند مضي الشهر ، ولا يمكن أحد من إخراج شيء من الكتب للخارج . . . ، وإذا كان المستعير - خارج هذه المؤسسة - سلم إليه ما يريد استعارته يطالع فيها نهاراً – أي في هذه المؤسسة – ثم يبيتها عند الخازن ثم يستعيرها منه نهاراً " وثيقة جمال الدين الأستادار ، رقم (١٠٦) محفظة (١٧) دار الوثائق القومية ، وزيادة في الحرص على الكتب نجد من الواقفين من ينص على ضرورة عزل (خازن الكتب) " عن بدا منه تقصير او خيانة في الكتب ، استبدل الناظر غيره " وثيقة وقف صرغتمش برقم (٣١٩٥) أوقاف ص ٣٤ ، نشر عبداللطيف إبراهيم وعن مواعيد فتح المكتبة فكانت غالباً في الأوقاف المخصصة للدروس طبقاً لشرط الواقف / " ويفتتح الخزانة في أيام الدروس يومين في الجمعة لطلبة العلم " وثيقة وقف السلطان الغوري برقم (٨٨٣) أوقاف سطر ١٤٤٨ ، دراسة عبداللطيف إبراهيم .

(٤) النهروالي ، الإعلام ، ص ٣٣٥ .

من بينها مصحف كبير الحجم ، ووقفها كلها على المدرسة الأشرفية بالمدينة المنورة[١] ، كما وقف يحيى بن زكريا (ت ٧٢١هـ / ١٣٢١م) خزانة كتب بالمدرسة الشهابية ، ووقف محمد بن فرحون (ت ٤٢١هـ / ١٣٢١م) كتاب الروضة للنووي ، الذي نسخه بخط يده ، ووقفه بهذه المدرسة ، ووقف إبراهيم بن رجب المجاور بالمدينة (ت ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤م) كتباً جليلة في الفقه والأصول وغيرها وقف بعضها بالمدرسة الشهابية ، والآخر ، وكان الأكثر بمكة[٢] .

وقد اشتهرت بعض الأربطة بنشاطها التعليمي ولذلك كثرت بها الكتب من مختلف العلوم والفنون ، ففي رباط ربيع[٣] بمكة كتب منها (المجمل) لابن فارس[٤] ، والاستيعاب لابن عبدالبر[٥] ، وكان برباط الموفق[٦] مكتبة كبيرة ، ، وهذه المكتبة كانت زاخرة بمختلف الكتب ، وكانت سبباً لتزاحم رواد العلم عليه والسكن فيه[٧] ، وقد اهتم المجاورون بالحرم الشريف بفهرسة مكتبات هذه الأربطة وتصنيفها بحيث يسهل تناولها ، وقد ذكر السخاوي أن

---

(١) بهاء الدين المذكور وصل على المدينة ومعه هذه الكتب في ٧ من ذي القعدة سنة ٨٨٩ هـ ، وكان يقوم بالمهمات السلطانية ، ولادته سنة ٨٤٧ هـ ، وفاته في العشر الأول من القرن العاشر الهجري . ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ق ١ ، ص ١٩٩ ، السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٣٠٧ ، السمهودي ، وفاء الوفا ، ج١ ، ص٤٦١ ، ج٢ ، ص ٦٤٣ — ٦٤٥.

(٢) المدرسة الشهابية بناها الملك المظفر شهاب الدين غازي الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شادي (ت ٦٤٥ هـ) ، ووقفها على المذاهب الأربعة من أهل السنة والجماعة ، وجعل لها أوقافاً بدمشق وغيرها ، كما كان لها أوقاف بالمدينة المنورة . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٨٦ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٦، ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج٧ ، ص ٤٣٥.

(٣) أمر الملك الأفضل علي بن الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب صاحب دمشق بإنشاء رباط بمكة على يد ربيع بن عبدالله المارداني المنسوب الرباط إليه في سنة ٥٩٤ هـ . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٦، ص ٢٧٥ — ٢٧٦، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٢، ص ٥٦٤ .

(٤) هو : أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد الرازي اللغوي ، من أئمة اللغة والأدب ، صاحب (المقامات) ومؤلفاته كثيرة منها (حلية الفقهاء) ، وفاته سنة ٣٩٠ هـ . ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ١١٨ .

(٥) هو : يوسف بن عبدالله القرطبي المالكي ، مؤلفاته كثيرة . الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٣ ، ص ٣١٤ .

(٦) رباط الموفق أنشأه علي بن عبدالوهاب الإسكندري في سنة ٦٠٤ هـ ، وذكر ابن بطوطة أنه من أحسن الأربطة الأربطة في مكة ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج٦ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، ويقع في أسفل مكة بالقرب من باب إبراهيم . الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٣٥ .

(٧) ابن بطوطة ، رحلته ، ص ١٣٤ .

صالح بن عبدالله بن محمد المغربي المجاور بمكة فهرس كتب رباط الموفق السالف الذكر في سنة (٨٧٨ هـ / ١٤٧٣م) ويبدو أن هذه المكتبة حوت الكثير من الكتب وإلا ما احتاج الأمر إلى فهرستها[١] ، ومما تجدر ملاحظته في هذا المقام أن معظم الواقفين لكتب الأربطة وقفوها على ساكنيها ، لعلمهم أن هذه الأربطة يقيم بها طلبة العلم المساكين الذي لا يجدون ما يشترون به هذه الكتب فوقفوا الكتب عليهم خدمة لهم ثم لغيرهم من طلبة العلم الآخرين[٢] ، ويلاحظ أيضاً كثرة مصنفات ومؤلفات رواد الحركة العلمية في هذه الفترة مثل (النجوم الزاهرة في السبعة المتواترة) وهي من أهم مصنفات قاضي المدينة محمد بن سليمان المصري (ت ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م)[٣] ، وألف عبدالله بن فرحون (ت ٧٦٩هـ / ١٣٦٩م) في التفسير (نهاية الآية في شرح آية) وغيرها ، وللتقي الفاسي (ت ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨م) " أربعون حديثاً متباينة الأسانيد والمتون بالسماع المتصل من حديث العشرة المشهود لهم بالجنة والصحابة الذين انتهى إليهم العلم والصحابة المكثرين والعبادلة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة "[٤] ، وللمجاور محمد بن محمد بن شمس الدين الجزري (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩م) مؤلفات كثيرة، وقد أحصى محقق كتاب (التمهيد في القراءات) ما ألفه من كتب فوجدها أكثر من ثلاثين مؤلفاً[٥] ، وكان عبدالرحمن بن أحمد بن عياش (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩م) معلماً لأبناء مكة المكرمة ، ونظم كتاب (ورقات المهرة) لوالده على طريقة (الشاطبية) وسماه (غاية المطلوب في قراءة أبي جعفر

---

(١) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٣ ، ص ٣١١ .

(٢) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ، ص ٤٤ ، ابن فهد ، الدر الكمين ، ورقة ١١٦ أ .

(٣) الزركلي ، الأعلام ، ج٦ ، ص ١٥٠ .

(٤) الفاسي ، العقد الثمين ، ج ١ ، ص ٣٣١ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٧ ، ص ١٩ .

(٥) وكان يحيى بن احمد بن أحمد (ت ٧٧٢ هـ) أحد الأئمة القراء بالحرم المكي ، عالماً باقراءات ، ومن مؤلفاته فيها (البيان في الجمع بين العقيدة والعنوان) . الجزري ، محمد بن محمد (ت ٨٣٣ هـ) ، التمهيد في علم التجويد ، تحقيق غانم قدوري حمد ، ط ١ ، بيروت ، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧ هـ ، ص ١٨ — ٢١ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج٧ ، ص ٤٢٩ .

وخلف ويعقوب)[١] ، وبرع مثله أيضاً محمد بن محمد بن محمد أبو القاسم (ت ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م)[٢] ومن مؤلفاته (الغياث في القراءات الثلاث الزائدة على السبعة) ، و (شرح طيبة النشر)[٣] لابن الجزري في مجلدين ، و (القول الجاد لمن قرأ بالشاذ)[٤] ، و (شرح الدرة المضية)[٥] ، وانتفع الكثير من أهل مكة بعلمه ، ومن العلماء من جمع بين التصنيف في التفسير وغيره من العلوم ، ومن هؤلاء القطب القسطلاني وهو محمد بن أحمد بن علي (ت ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م)[٦])[٦] ومن تآليفه (كتاب المناسك) ، و (لسان البيان عن اعتقاد الجنان) ، و (حمل الإيجاز في الإعجاز بنار الحجاز) ، و (فواضل الزمن في فضائل اليمن) ، و (الورد الزائد في بر الوالدين) ، و (عروة التوثيق في النار والحريق)[٧] ، ولمحمد بن المحب الطبري المتوفى سنة وفاة أبيه (ت ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤م) كتاب في المناسك سماه (التشويق إلى البيت العتيق) وغيره[٨] ، كما اشتهر عبدالرحمن بن الحسين الكردي ، المجاور بالمدينة بكثرة مصنفاته التي منها (الاستعاذة بالواحد من إقامة جمعتين في مكان واحد) ، و (تاريخ تحريم الربا) ، (تكملة شرح المهذب للنووي)[٩] ، وغيرها ، ولمحمد بن أحمد بن سعيد المقدسي الحلبي ، المجاور بمكة من سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠م حتى وفاته في سنة (٨٥٥ هـ / ١٤٥١م) (الشافي في الكافي) في مجلد ، و (كشف الغمة بتيسير الخلع لهذه الأمة) مجلد ، (سفينة الأبرار الجامع للآثار والأخبار)

---

(١) ابن فهد ، معجم الشيوخ ، ص ١٢٣ — ١٢٤ ، السخاوي ، الضوء اللمع ، ج٤ ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٩ ، ص ٢٤٩ .

(٣) الزركلي ، الأعلام ، ج٧ ، ص ٤٨ .

(٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، ٩ ، ص ٢٤٦ .

(٥) الزركلي ، الأعلام ، ج٧ ، ص ٤٨ .

(٦) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج٢ ، ص ١٣٢ برقم ٤٨٠ ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ٣٢٢ ترجمة رقم ٣٥ .

(٧) نقل السمهودي من (عروة التوثيق في النار والحريق) في جزئه الأول من كتاب وفاء الوفا ، من ص ١١٤ وما وما بعدها ، وفي جزئه الثاني من كتاب وفاء الوفا من ص ٥٩٧ وما بعدها ، وذكر حريق المسجد النبوي ، وعظم لطف الله في حدوث ذلك .

(٨) الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ٢٩٤ .

(٩) وفاة عبدالرحمن المذكور سنة ٨٠٦ هـ ، السخاوي ، التحفة اللطيفة ، ج٢ ، ص ٥٦٢ — ٥٦٣ .

للوعظ في ثلاث مجلدات ، و (الآداب)[١] وغيرها ، ولمؤرخ المدينة السمهودي (الأنوار السنية في أجوبة الأسئلة اليمنية) فضلاً عن مصنفه (وفاء الوفا)[٢] وغيره .

ومن مؤلفات محمد بن عبدالله بن محمد الأندلسي في اللغة (الضوابط الكلية في علم العربية)[٣]، (والكافي في النحو)[٤] ، (الإملاء على المفصل)[٥] ، ولمحمد بن المحب الطبري السابق كتاب في اللغة أسماه (عمدة المتلفظ بتنظيم كفاية المتحفظ في اللغة)[٦] .

وقد كان لشهاب الدين أحمد بن إسماعيل الأبشيطي (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٧٨م) مؤلفات في سائر العلوم الشرعية والعقلية في أثناء مجاورته بالمدينة أكثر من عشرين سنة ، ومن مصنفاته في العربية (التحفة في العربية) ، و (شرح قواعد ابن هشام) ، و (البردة)[٧] .

ومن المؤلفات ما يتصل بعلم الجغرافيا ، فكتاب العقد الثمين قد تضمن الباب الأول منه ذرع مكة وجبالها ، والباب الثامن ذرع الكعبة ، والبابان الحادي والعشرون والثاني والعشرون تناولا ذكر الأماكن المباركة التي ينبغي زيارتها ، وغيرها من المعلومات التي تخللت بعض التراجم التي أرخها الفاسي[٨] ،

---

(١) ابن فهد ، معجم الشيوخ ، ص ٢٠٤- ٢٠٥ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٦ ، ص ٣٠٩ ، الحنبلي ، شذرات الذهب الذهب ، ج ٧ ، ص ٢٨٦.

(٢) هو : نور الدين بن أحمد السمهودي ، المتوفى سنة ٩١١ هـ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج١ ، ص ١٩٤ .

(٣) مخطوط مصور بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى / ميكروفيلم ، رقم ١٣٣٦ ، نحو ، عن مكتبة برلين بألمانيا الغربية برقم ٢٤٢ ، أوراقه ١٤٣ ورقة .

(٤) الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢ ، ص ٨٢ ، والسوطي ، بغية والعاة ، ج١ ، ص ١٤٥ .

(٥) ذكر هذا الكتاب ياقوت في معجم الأدباء ، ج٥ ، ص ٣٤٩ ، (المفصل) كتاب في النحو لجار الله أبي القاسم الزمخشري ، وقد تناوله في أربعة أقسام الأول في الأسماء ، والثاني في الأفعال ، والثالث في الحروف ، والرابع في المشترك ، ثم اختصره وسماه (الأنموذج) وقام كثير من علماء النحو بشرحه. حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٧٧٤ .

(٦) الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ، ص ٢٩٤ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج٢ ، ص ١٥٠٠ .

(٧) السيوطي ، نظم العقيان ص ٣٧ /٣٨ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١ ، ص ٢٣٥ .

(٨) العقد الثمين ، ج١ ، ص ٢٨ — ٥٣ ، ٩٤ — ١٠٤ .

، وتناول أيضاً وصفاً شاملا لمكة ، والأسوار المحيطة بها ، وأشار إلى الامتداد العمراني الذي كان بمكة منذ عهد الفاكهي في كتابه شفاء الغرام الذي أوضح معاناته حين قام بذرع مكة من حدها الشمالي والجنوبي والغربي[١] ، كذلك السمهودي في فصله الثامن من كتاب وفاء الوفا ، الذي احتوى على بقاع المدينة وأعمالها ونحو ذلك ورتب أسماءها على حروف المعجم[٢] .

وعلى الرغم من ندرة المؤلفات في الكتب العقلية فإن نجم الدين أبا القاسم عبدالرحمن بن يوسف الأصفوني (ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩م) الذي أقام بمكة كان عالماً بالحساب ، وصنف في الجبر والمقابلة كتاب (المسائل الجبرية في إيضاح المسائل الدورية)[٣] ، وألف في الرياضيات والفرائض على بن محمد بن إسماعيل الزمزمي (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٨٠م)[٤] ومن مؤلفاته (تحفة الطلاب) منظومة ، و (كنز الطلاب) منظومة ، و (فتح الوهاب)[٥] منظومة ، وفي الفرائض (المشروع الفائض في الفرائض) ويزيد على ألف بيت ، وأثنى عليه السخاوي قائلاً : (لم يختلف في فنونه بعده مثله)[٦] .

ومن خلال ما سبق تتضح لنا أهمية الوقف في هذا النشاط ودوره الفعال في النمو العلمي والتصنيفي .

وأكدت الأموال الوقفية إسهامها في النهضة العلمية في الحرمين وخارجهما ورعت هذه الأموال العملية التعليمية من مرحلة الطفولة حتى المراحل الدراسية العليا بعدها ، وقد تضمنت الوثائق التخصيص عليهم من هذه الأموال وهم دون البلوغ برواتب ثابتة لهم تضمن عدم احتياجهم إضافة لباقي المعينات العينية من كساء أو حبوب وغيرها ، وبذلك تكون قد هيأت جواً علماً طيباً ومناخاً سليماً

(١) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ١٤ .
(٢) السمهودي ، وفاء الوفا ج ٤ ، ص ١١١٦ – ١٣٣٢ .
(٣) مخطوطة بمكتبة أوقاف بغداد (٤٢٧٢) ، الزركلي ، الأعلام ، ج٣ ، ص ٣٤٢ – ٣٤٣ .
(٤) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١ ، ص ٢٩١ – ٢٩٢ .
(٥) البغدادي ، هدية العارفين ، ج١ ، ص ٧٣٧ .
(٦) السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص ٢٩٢ .

لنمو معارف الصغار استعداداً لدراساتهم اللاحقة ، وبالطبع فهذه الدراسات قد اعتمدت على الأموال الوقفية إذ لم يكن هناك تخصيصات أخرى في المدينتين المقدستين ، فأغلب رواد هذه الحركة ترعرعوا ونشؤوا على ما وضعته أموال الوقف نقدية أو عينية ، وكانت راتبة لهم ، فضلاً عما كانوا يتقاضونه من مخصصات أوقاف الحرمين الشريفين ، والصدقات الأخرى العينية والنقدية ، وعضدت الأوقاف أماكن التعليم بإنشاء الأربطة والمدارس التي كانت محلاً للسكن والدراسة ، وكثرت الأوقاف على المكتبات ، وضمت الكتب الشرعية وغيرها لرواد العلم ، وهذه الكتب كان لها دورها في تنوع المعرفة وتطورها ، وكل هذا يعلل النهضة التي شهدتها الحجاز جميعه والمدينتان المقدستان على وجه الخصوص وكانت الأوقاف سبباً مهماً من أسبابها .

أثر الأوقاف في ازدهار الحياة الاقتصادية :

يشكل الوقف مورداً اقتصادياً مهمّا، قد لا يتيسر في أي دولة بصورته التي نعمت بها المدينتان المقدستان ، ومع تعدد الأوقاف وتنوعها، وضخامة ريعها وعوائدها دارت في عجلة الحياة الاقتصادية في مصر والمدينتين المقدستين ، فاستوعبت عدداً كبيراً من الموظفين ، وأتاحت فرصاً لتشغيل الأيدي العاملة ، وحدّت من البطالة التي تتهم بها الأوقاف[١] ، وتحققت فوائد مالية كثيرة من ريع الموقوفات

---

(١) يصف البعض نظام الوقف بأوضاعه وظروفه في العصر المملوكي بأنه كان مدعاة للبطالة والبعد عن الحياة الجادة العاملة ، وأنه ترتبت عليه نتائج اقتصادية سيئة نتجت عن اعتماد البعض على الأوقاف سواء كانوا مستحقين فيها أو من أرباب الوظائف، ولاسيما المقيمين منهم بالربط والزوايا ، إذ كان تقرير الوظائف طبقاً لشرط الواقف ، وكان توارث البعض لهذه الوظائف، قاضياً على الدوافع الشخصية في نفوس المتوارثين لهذه الوظائف للاتجاه للعمل والإنتاج ، فقد ضمنوا وهم في طفولتهم وظائف محددة بمرتبات مغرية حصلوا عليها بحكم مولدهم ونظام التوريث الذي اشترطه الواقف ، وعلى ذلك فإن معظم الوظائف الإدارية والدينية الخاصة بشئون الحرمين الشريفين هي على نظام الوراثة في الأسرة الواحدة ، مثال ذلك ورث محمد بن محمد بن يوسف الذردى الشهير بالمصري ولده في مهنة الفراشة في الحرم المكي ، وفاته عام ٧٩٠هـ/١٣٨٨م ، الفاسي ، العقد الثمين ، ج٢، ص ٣٢٧ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص ٥٣٩ ، كما عرفت وظيفة الإمامة والخطابة في الحرمين نظام الوراثة وكانت محصورة في بعض الأسر ، فقد تولى الشهاب أحمد بن الضياء بن التوروزي القسطلاني إمام المالكية في المسجد الحرام (ت٦٧١هـ/١٢٧٢م) بعد أبيه ثم خلفه أخوه البهاء عبدالرحمن بن الضياء بن

من جوامك ومصروفات مختلفة، وما أنفقته الأوقاف في عمليات شراء الأطعمة ، والحبوب، والملابس ، والزيوت ومواد بناء وغيرها، كل ذلك أنعش الحياة الاقتصادية ، وأحدث رواجاً في الحركة الشرائية في الأسواق بالمدينتين المقدستين .

وساعدت الأوقاف بطريق غير مباشر في ازدهار طرق التجارة؛ بما وفرته من الرعاية والعناية لطرق ركب الحاج البرى والبحري المتوجه إلى الحرمين الشريفين بعمل البرك والأسبلة وأحواض المياه المخصصة للدواب وحفر الآبار ، وتمهيد الطريق ، فكل هذه المبرات المتجهة بشكل مباشر لخدمة ورعاية حجاج بيت الله الحرام ، أدت إلى ازدياد عدد الحجاج ورواج النشاط الاقتصادي على هذه الطرق ومحطاتها ، فظهر أثر ذلك على الحالة الاقتصادية بالمدينتين المقدستين بوجه عام ، وكان لميناءي جدة وينبع دورهما في إنعاش اقتصاد الحرمين الشريفين ، وقد تحدث المؤرخون عن أهمية هذين الميناءين والدور البارز الذى لعباه في جلب المتاجر إليهما من بقاع العالم كله شرقه وغربه ، والذي انعكس بشكل مباشر على المدينتين المقدستين ، فأقيمت فيهما الأسواق العالمية وقت مواسم الحج .

وأسهمت الأوقاف في رفع مستوى المعيشة للفرد بالمدينتين المقدستين من خلال المؤسسات الاجتماعية والتعليمية ، فإنشاء الأربطة لإيواء الأرامل والمطلقات والفقراء والمنقطعين والمجاورين وطلبة العلم الفقراء وغيرهم من أهل الاحتياج والإنفاق عليهم ، وعلى الوظائف الخاصة بهذه المنشآت، وإنشاء المدارس والمكاتب والتعهد بالصرف على طلبة العلم والمعلمين. وعلى المشتغلين بالعلم والمتصدرين له ، وكفالة الأيتام وتأديبهم ، كل ذلك كان من ثمار الأوقاف الطيبة ، فمن ريعها قامت هذه المؤسسات ودعمت مكانتها للقيام برسالتها على

التوروزي القسطلاني . الفاسي ، العقد الثمين ، ج٣ ص١٥٩، ج٥ ، ص٤٠٥ ، ابن فهد ، إتحاف الورى ، ج٣ ، ص١٠٢، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٥ ، ص٢٤٤ .

أكمل وجه ، من خلال الصرف والإنفاق عليها ورعايتها ، فوفرت الوظائف ، وأمنت الرواتب مما أدى إلى تنشيط الدورة الاقتصادية لهذه الأموال فانعكس ذلك على الحالة الاقتصادية في مكة المكرمة .

ولا يمكن إغفال دور الحج الذى هو بمثابة منتدى عام لجميع المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، في إنعاش الحياة الاقتصادية ورواج الأسواق بالمدينتين المقدستين والسبب أن جموع الحجيج الوافدين لأداء شعائر الحج بمكة ، وزيارة المدينة ، كانوا يقيمون فترة طويلة تزيد على شهرين ، ففي مكة كانت إقامتهم أكثر من شهر ، حتى إذا انقضى حجهم كانوا يمكثون بها عشرة أيام في انتظار إذن أمير مكة لهم بالرحيل الذي لا يتم إلا بعد هذه الفترة حتى ينفق الحجاج ما معهم في شراء احتياجاتهم من أسواق مكة التي يحدث موسم الحج فيها رواجاً هائلاً[1]، هذا بالإضافة إلى الرواج الذي يحدث في سوق منى في أثناء موسم الحج[2]. وتستفيد المدينة المنورة اقتصاديّا من الحجاج الذين يمرون بها في الذهاب والإياب ، خصوصاً حجاج مصر والشام ، ويقفون بها لزيارة قبر النبي ﷺ ويعتبر موسم الحج وما يدرّه من رواج اقتصادي بالأسواق من أهم أيام السنة بالنسبة لأهالي المدينة وتجارها[3] ، وكان هؤلاء المعتمرون والحجاج يأتون ومعهم الكثير من السلع التجارية ، وعادة ما كانت القوافل تصل إلى المدينة النبوية قبل وصولها إلى مكة المشرفة قبيل موسم الحج ، فضلاً عما كان يصل إلى

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص٢٩ ، البتنوني ، الرحلة الحجازية ، ص٢٠٦ ، وفي وثائق الجنيزة معلومات قيمة عن أهمية موسم الحج في حركة التجارة الدولية ، إذ احتوى بعضها على نصائح من بعض التجار في مصر لشركائهم بعدم التسرع في شراء البضائع حتى عودة الحجاج من مكة ، ويستدل من ذلك على كثرة ما ينفقه الحجاج في شراء البضائع التى يأخذونها معهم إلى بلادهم . حسنين ربيع ، وثائق الجنيزة ، ص٣٥ .

(٢) ابن جبير ، رحلته ، ص١٣٣ ، ابن بطوطة ، رحلته ، ص١٦٥، كما نوه ابن جبير عن رواج الأسواق في مكة وفي منى فقال : "... ولم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب ... إلى غير ذلك من السلع الخرسانية والبضائع المغربية مالاينحصر ولاينضبط مالو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة ..." رحلته ص٩٨ .

(٣) محمد أمخرون ، المدينة المنورة في رحلة العياشي ، الطبعة الأولى ، دار الأرقم ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، ص٤٣ .

ميناء ينبع باب المدينة ورئتها التي تتنفس منها على العالم الخارجي ، حيث ترد إليها السفن من مصر ، والحبشة والهند ، محملة بكثير من السلع ، بالإضافة إلى ما يرسله السلاطين المماليك من احتياجات ومؤن وجملة ما يريدون أن ينفقوه على أهالي المدينة ومجاوريها[١]، ولم تكن نفقات الحجاج مقصورة على ما يصرفونه في أسواق المدينتين ومشاعرهما المقدسة ، فإنهم كانوا يحتاجون إلى مأكل ومسكن وغير ذلك ، وكل هذه يوفرها لهم أهالي المدينتين بمقابل مادي ، كما أسهمت بعض الأوقاف في توفير السكن والمأكل لبعض الحجاج ضمن منشآتها الاجتماعية والتعليمية في الحرمين الشريفين ، مثال ذلك المدرسة المنصورية ، ٦٤١هـ/١٢٤٣م، بمكة المشرفة ، التي استخدمت مسكناً لبعض الحجاج والزائرين القادمين إلى مكة المشرفة ، منهم الرحالة ابن بطوطة[٢] ، والأمير خشقدم الزمام ، وكذلك مدرسة قايتباي ٨٨٢هـ/١٤٧٧م بمكة المشرفة ، فقد استخدمت دار ضيافة ، ينزل فيها أمراء الحج المصري ، وممن سكنها أمير المحمل المصري جوشن عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م[٣] ، وكان ينزل بها كبار الوافدين إلى مكة ، ففي عام ٨٨٩هـ/١٤٨٤م وصل إلى مكة حاجّا القاضي أبوالعباس بن الجيعان وسكن مدرسة قايتباي[٤] ، والواقع أن المنشآت الاجتماعية لا تقل في أهميتها عن المنشآت التعليمية في توفير الرعاية للحجاج الوافدين إلى مكة والزائرين للمدينة ، حيث كانت هذه المنشآت توفر سبيل الإعاشة والإقامة والراحة لنزلائها ، ليس فقط للحجاج والزائرين بل شملت رعايتها الغرباء والأرامل والمنقطعين والفقراء وطلاب العلم والمجاورين من كافة الأجناس ، ومثال ذلك رباط القزويني ٥٢٩هـ/١١٣٤م بمكة المشرفة وكان ينزل

---

(١) المقريزي ، السلوك،ج١ ص٩١٧ ، ابن إياس،بدائع الزهور ، ج٤ ص٣٠٧ ، حمد الجاسر ، بلاد ينبع ، ص٣١ .

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص١٥٠ ، وذكر ابن بطوطة أنه في أثناء إقامته بمكة سكن في رباط الموفق والمدرسة المظفرية وذلك نسبة إلى الملك المظفر والد الملك المنصور عمر بن رسول مؤسس هذه المدرسة . وقد سكنها الملك المنصور وزوجته في أثناء إقامتهم بمكة لأداء فريضة الحج ، كما أمرت زوجته بحفر بئر بها لكي ينتفع طلبتها بسقيا مائها . الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ص١١٧ ، شفاء الغرام ، ج١ ص٢٥٤ .

(٣) عبد العزيز بن فهد ، بلوغ القرى ، ورقة ١٨٣.

(٤) الرشيدي ، حسن الصفا ، ص١٤٨.

به حجاج قزوين في أثناء موسم الحج[1] ، ورباط الموفق ٦٠٤هـ/١٢٠٧م بمكة المشرفة وقد نزل به الرحالة ابن بطوطة ووصفه بأنه من أحسن الأربطة بمكة[2]، وسكن فيه الرحالة التجيبي السبتي[3] ، وكذلك الرحالة القلصادي[4] .

وبالتالي فإن هذه المنشآت كان لها دور مهم لا يمكن إغفاله في إنعاش الحياة الاقتصادية بالمدينتين المقدستين ، فمعظم هذه المنشآت أوقاف ، سواء كانت اجتماعية ، أو تعليمية ، أسسها الواقفون، وتعهد ريع الوقف بالصرف والإنفاق عليها ، فأدت دورها الاجتماعي والاقتصادي ، مما ترك أثره على الحياة العامة بالمدينتين المقدستين .

وقد شهد العصر المملوكي من الظروف الاقتصادية والنظم المالية ما أدى إلى انتشار الأوقاف ، ونتج عن ذلك انتعاش الحياة الاقتصادية في بلد المستفيدين من ريع تلك الموقوفات ، فالظروف الاقتصادية والتحولات التي صاحبتها نتيجة لرواج التجارة العالمية العابرة عن طريق البحر الأحمر وازدحام التجار على الموانئ المصرية والحجازية بعد اضمحلال طرق التجارة الرئيسية الأخرى بين الشرق والغرب ، نتيجة لهجمات المغول واستيلائهم على بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وامتداد نفوذهم على طرق التجارة البرية ، مما أتاح الفرصة لسلاطين المماليك للاستفادة من القيام بدور الوسيط التجاري بين تجار الشرق وتجار الغرب ، هذا بالإضافة إلى سياسة الاحتكار التي مارسوها نتيجة اختلال النظام الإقطاعي والحصول على الثروات من أيسر الطرق ، وبذلك جمعوا الثروات الطائلة التي

---

(١) الفاسي ، العقد الثمين ، ج١ ص١١٠ ، شفاء الغرام ، ج١، ص٥٢٩ ، الزهور المقتطفة ص٦٨ ، تحصيل المرام ص١٩٤.

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص١٤٠. نزل به ابن بطوطة في حجته الأولى عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م .

(٣) التجيبي، مستفاد الرحلة، ج٢ ص٤٥٦ . نزل بهذا الرباط التجيبي عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م .

(٤) القلصادي : هو أبو الحسن على القلصادي الأندلسي ، ولد عام ٨١٥هـ/١٤١٢م ، بمدينة سبطة الأندلسية وهو رحالة أندلسي زار مكة عام ٨٥١هـ/١٤٤٧م ، وتوفي ببجاية الأفريقية عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م . القلصادي ، الرحلة ، ص١٣٤.

حرصوا على المحافظة عليها وتحصينها ضد المصادرات ، فاتجهوا إلى نظام الوقف مدفوعين بعوامل سياسية وأحاسيس دينية[١] ، وكانت هذه الأوقاف معفاة من الخراج والضرائب وكان الأساس في هذا الإعفاء هو أن الأموال الموقوفة في سبيل الله ليس فيها زكاة ، لأن المفروض في الوقف أنه صدقة ، كذلك وجد من النظم المالية ما ساعد بطريق غير مباشر على زيادة الأوقاف وانتشارها ، من ذلك ديوان المواريث الحشرية الذي كانت تؤول إليه تركة المتوفى بلا وارث ، وفي بعض الأحيان كان ديوان المواريث الحشرية يستولى على التركات رغم وجود ورثة مستحقين[٢] ، لذلك لجأ كثير من الناس ممن لا وارث لهم إلى وقف مدخراتهم على أنفسهم مدى حياتهم وبعد مماتهم على عتقائهم أو على وجوه البر والإحسان حتى لا تذهب أموالهم إلى ديوان المواريث الحشرية ، ومن عوامل تسابق الواقفين على إنشاء الموقوفات ورصد الأوقاف عليها : التنافس والمباهاة[٣] ، وزادت الموقوفات في نهاية العصر المملوكي للإحساس بدنو أجل الدولة بعد اضطراب أحوالها وخاصة تدهور الأحوال الاقتصادية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وفقدت مصر أهميتها التجارية ، فأراد الواقفون تأمين أموالهم وسط مظاهر الخلل[٤] المحيطة بهم .

وقد وفرت الأوقاف الكثير من الوظائف وفرص العمل ، وتولى هذه الوظائف ما يمكن أن يطلق عليه "مجموعة الوظائف الإدارية " مثل النظارة ، والمباشرين ، والكتاب والجباة وغيرهم . و " مجموعة الوظائف الفنية " مثل العامل ، والشاد ، والصيرفي ، والمهندس ، والمعلم ، والممرض وغيرهم .

(١) عاشور ، العصر المماليكي ، ص٢٩٥ ، الأيوبيون والمماليك ، ص٣٥١ ، المجتمع المصرى ، ص٢١ .

(٢) ابن حجر ، إنباء الغمر ، ج١ ص٢٥٤ ، المقريزي ، السلوك ، ج٢ ص٤٣٥ .

(٣) المقريزي ، الخطط ، ج٢ ص٤٠١ .

(٤) عبد اللطيف إبراهيم ، دراسات تاريخية ، ص١٢٣.